قَصاصاتٌ

مِن كِتابِ الصَّحراء

قصص قصيرة

زيد الشهيد

عين على الكتاب
الثقافية
دار للنشر والتوزيع

قَصاصاتٌ مِن كِتابِ الصَّحراء

الكتاب : قصاصات من كتاب الصحراء

المؤلف: زيد الشهيد

الصنف: قصص قصيرة جدا

الطبعة: الأولى

سنة الطبع : 2020

ISBN: 978-9922-9118-8-5

رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (3071) لسنة 2020

تصميم الغلاف و الإخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع

عنوان الدار : بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي – الطابق الاول

الهاتف: 009647714343692 \ 07729247088

alwarsha2018@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب او أي جزء منه او تخزينه في نطاق استعادة معلومات او نقله بأي شكل من اشكال دون اذن خطي مسبق من الناشر

ان الاراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار الورشة الثقافية

قَصاصاتٌ مِن كِتابِ الصَّحراء

قصص قصيرة جداً

زيد الشهيد

بينَ ثنايا العِطر

(1) قوافلُ العِطر ...مِسكُ الغَزال

لم يكُن ليبتهج ويزداد تمايساً على ايقاعِ الهناءِ الجَليل لولا الايماءةُ التي حَملَت انفاسَها، والعطرُ الذي جاءَ قوافلَ من رياضِ شوقِها كتبَ على جبينِ صَباحِه تحيةً من شوق ..إذ صَحا على كلماتٍ تتهافتُ عندَ مظلاتِ عينيه كالجيشِ في الميدان، فيما هناكَ قلادةٌ مزروعةٌ باللؤلؤِ والمُرجانِ تُطرِّزُ نَحراً لغزالةٍ تتباهى بِخُيلائِها(إنَّ الغزالاتِ سواحرٌ يُفجِّرنَ الاغراءَ في قلوبِ مُحبِّي الجَّمال، وينثرنَ الاغواءَ في فَضاءِ تطلّعاتِهم.) سمِعَ عنها في رحلةِ رَفلٍ موسيقية، ورقصاتِ ريشةٍ على اوتار، وصوتٍ يأتي من بين ثنايا عِطرِ المِسك الذي بعضُ دمِ الغزالِ .فتذكَّر أنَّه البارحةَ حملَه سائقُ عربةِ الشيفروليه قاطعاً الدَّربَ من الاحساءِ باتجاهِ الكويت عندما كان واقفاً عندَ حافةٍ رمليةٍ تُحاذي الطريقَ الاسفلتي ولا يدري لماذا هوَ هناك، وما الذي جاءَ به إلى ذلك الهَجيرِ

الصحراوي ..كلُّ ما يَدريه أنَّه نامَ وفي رأسِه صورةٌ لرجلٍ يرتدي عِقالاً أسودَ ويشماغاً أبيضَ منقطاً بلونِ ورد الرمّان ويحضنُ عوداً، يداعب أوتاراً بريشةٍ هي قلمِه الذي يكتب بواسطتِه رسائلَ الخلود.

ينتبه لعذوبةِ كلماتٍ ورهافةِ نغمٍ يُدندنُ بِهما السائقُ المتحكِّمُ بمقودِ عربته، فيوقعُه في دُوارٍ، ويَجرُّه إلى واحةِ هيام، تجمعُ جوقَ غزلانٍ نافرة تَتهايفُ تيهاً، تعجُّ بالفيوضِ ومدِّ عُشبٍ متُهادٍ على انسامِ رَبيعٍ جاءَ قبلَ أوانِه ..كانت" دبي "المُستلقية على شاطئ الخليج على مَرمى نَظر، واشرعةُ الزوارقِ ناصعةً بلونِ الثلج، يُخيَّل لمَن يُطالعها أنَّها تجمعاتُ نوارسَ أتَت بها ريحٌ باردة فاستلطفتها؛ وكان المُدندنُ سارحاً في واحةِ سعادتِه ورخامةِ صوتِه

" :اغزيلٍ فلّه

بدبي لاگاني

..امشط الـگذلة

سلَّمت وحيّاني."

تأخذُه دَندنةُ السائقِ وأنسامُ سرورِه مَسروقاً من دوَّاماتِ الهواءِ التي تقتحمُ نافذةَ العَربة (الدوّاماتُ قصيدةُ الصحراءِ التي تنتظرُ روّادَها)، فيديرُ رأسَه كي يَتفحَّصَ هذا الماسكَ بالمِقوَدِ، المُحلِّقَ في سيماءِ اللَحنِ السماوي ..يُطالعُ سُمرَته، ويُخمِّن أنْ ليسَ معَه جَليساً جَنبَ مِقعَدِ القيادة، بل صحبَةَ الصحراءِ المترامية بامتداداتِها وسَرَحانِها، وذلك الافعوان الاسفلتي الذي يتلوَّى على جغرافيةِ الرِّمال .

إنَّ الصَّحراءَ كثيراً ما أغوت مَن جاءَ ليقطعَها؛ وكثيراً تَسبَّبَت في نَثرِ فايروساتِ الفضولِ والرغبةِ في الامتلاكِ والحيازة حين تُظهرُ غزالةً على تلَّة الغوايةِ، فيتيهُ المُشاهدُ لها هياماً بها ..يُفكِّر في صَيدِها، يَحلُمُ بها رفيقةً عند واحةٍ وغدرانِ ماء ..فيروحُ مِن فَرطِ هيامِه يتبعها، ويتبعها، ويتبعها، حتى ترمي به إلى براري التيه، وفقدانِ العَقلِ، وخسرانِ العمر.

وبلحظةٍ، يتوجّه بصوتٍ كالهِتافِ، مَصحوباً بالشَّدَه والاسئلةِ المتهافتة :مَن أنتَ، أيُّها البارِع في اللحنِ، المُجيدُ في الغناءِ،

المَحظوظُ بالموهبةِ؟ ...!ولماذا أنا مَعك؟ ..!ومن هذا الغزالُ الذي أفتَنَك، فَسَحَرَك، فجعلك تطوي الأرضَ بما رَحُبَت والسماءَ بما انفتَحت كأنَّك على جَناحِ صَقرٍ؟ ..أين نحنُ الآن، وإلى أيِّ غَديرٍ أو شعيبٍ تقود صوتَك مثلما عربتَك؟ .. أأنتَ في رِحلةٍ " لِعمانِ "وفي هذا البرِّ الغافي في ظلِّ شَجرةِ طَلحٍ أو سِدر، أو سلسلةِ تِلالٍ ناهِضةِ تُعلنُ وجودَها الثابت في مُحيطٍ رملي مُتغير؟ ..أحقاً لك عدوانٌ تبغي كيدَهم بغزالِك كيدا؟ ..قل لي :مَنْ أنت؟ ومَن هذا الغزالُ الذي يجعلك في هِيام، فتنسى أنَّني مَعك؟

مِن بين ثنايا العِطر الروحي، وعلى ايقاعِ المِسكِ الذي شرعَ يتناثر مَع كلماتِ اللحن المُنبعث من فَمِه عاد ينظر إليَّ كالمسحور الذي تنبَّه إلى واقعٍ شَعرَ به غريباُ لوهلةٍ، ثم راح يُحكِمُ الامساكَ بمِقودِ العربة، وينطقُ بالمعذِرة، قائلاً : "سامحني يا رفيقي، إنَّ الصحراءَ غانيةٌ لَعوب ..هي قرينةُ الغزلان، وصانعةُ المجانين الذين يَحلمونَ بواحدةٍ لا ندري

متى يحصلُ الفَوزُ بها، والعيش معها على ايقاعِ مَيسِها الفاتنِ في واحةِ السعادة المُبتغاة ".

(2) فَيضُ الغِدران ...دائرةُ الرِّمال

ورمى بصرَه بعيداً، حيث التلالُ هلاميةً تَتشكَلُ وتذوي بتأثيرِ الريحِ الجنوبيةٍ القادمةِ من جنونِ البحر، هو الرجلُ الحضريُّ الذي لا يَعرفُ كيفَ وصلَ إلى هذا المكان، ولماذا؟ ..لذلك ما كان يريدُه هو الخروج من دائرةِ رمالٍ تحيطُه بعدما طلبَ من سائقِ الشيفروليه أنْ يُنزله رُغمَ الحاحِ السّائقِ على رغبةِ مصاحبتِه في رحلتِه التي ستنتهي بمدينةِ الكويت، فالباديةُ لُحسنِ طالعِه تعيشُ أواخرَ أيامِ العطشِ الصيفي الظالمِ بانتظارِ مجيءِ الغيومِ الرحيمةِ الحانيةِ التي شرعَت تتوالى .. غيومٌ تأتي بطيئةً فتصنعُ ظلاً يَقيه اللَفحَ ...احدى الغيمات ضَحِكت(ضحكةُ الغيومِ سيمفونيةُ السماءِ بلسانِ الملائكة)، وراحت تهمَس له إنَّ زمانَ الصَّهدِ على وَشكِ الانتهاء (

الصَّهدُ مفردةُ اليَبابِ المُتسللةُ من نارِ الجَّحيم)، والغزلانُ التي تَسيحُ في البراري بَحثاً عن أُخدودٍ فيه ماءٌ يروي ظَمأها، ستراها عَن قريب.

كلامُها جَعلَه يُخمِّن أنْ سيبزغ النوّار(نوّارُ الروحِ أغنيةُ القلبِ، ترنيمةُ النقاء) من حضنِ الارضِ استجابةً للهواءِ البارد، الغارقِ في رطوبةٍ تتباهى بثقلِها وغنجِها، وستتراجعُ الرِّمالُ المبتلاتُ بالجَّفافِ لصالحِ الندى وهو يُعلنُ انتشارَه بين الذرّات ..وتذكَّر(يا للذكرى التي تَعنُّ عليه!)أنه آتٍ بحثاً عن "بشاير "التي حكَت له أمُّه عنها يوم كانَ طفلاً يلحُّ عليها أنْ تحكي له قصةً قَبلَ أنْ يَنام.

وكانت "بِشاير "بقامتِها الرشيقةِ الناحلةِ، ووجهِها المُتَّشِح بِصفرةٍ تتواءم وسوادَ الكِحل المُنتشرِّبة به رموشُها ليست ببعيدةٍ عنه ..إنَّها تتواجدُ خلفَ صفِّ التلالِ البعيدةِ نوعاً ما(هذا البعدُ يؤرِّقُ الرجلُ الحالمُ ، ويقضُّ مَضجعَ رغبته في خشيةِ عدمِ تَحقيقِ المآل)، وإذا ما سارَ مَسيرَ ألفي مِتر سيكونُ في مواجهةٍ مَعها لا تتعدّى عشرةَ أمتار ..تمسكُ الآن عصا

تهشُ بها على غَنَمٍ تهجَّست ثورةَ ريحٍ واكفهرارِ سَماءٍ فاستجابت للعصا، آخذةً الطريقَ الى الخيمةِ المعتادةِ التي تضمّها ليلاً .وإذ تَدخلُ جميعاً وتضع حاجزَ الوبرِ كَبابِ اغلاقٍ تستديرُ لتبعثَ بالنظرِ إلى البعيد لعلّها ترى" حَمَد " (حَمَدُ الأمنيةُ الخالدةُ في عالمِ الروح) ولو طيفاً؛ فهي بقلبِها النابض بعشقِه تخشى من صاعقةٍ تأتي بها غيومٌ تَشهدها قادمةً تَتكدَّس رماديةً تستحمُّ بالسَّواد.

وكان حَمَد بطولِه الذي كالرمحِ ووجهِه المستديرِ المُتباهي بشاربين خفيفين يقفُ عند بابِ الخيمة؛ هناك على بعدِ فَرسخين يُمنّي النفسَ بآهةٍ قادمةٍ من صَدر "بشاير "(بشاير كنزُ العشقِ الذي لا يَنضُب) تمسُّ وجهَه فتحييهِ بحرارتِها . وكان سعيداً بحضورِ الغَيمِ ، وحالِماً بمَطرٍ مِدرارٍ سَيجعلُه يَدنو مِن فيوضٍ سَتزحَفُ اليها أغنامُ بِشاير ..هناك، حيث سَيبعثُ لها ببيتٍ شِعري هو رسالتُه الصوتيةِ دونَ الاقترابِ منها ...إنّه يُمنّي النَفسَ بمَطرٍ رحيمٍ (متى تخلّى المَطرُ عن الرَّحمةِ !) يرضعُ الارضَ بماءٍ تنهض فيها الزروعُ وتتعالى

بما يَكفي لإخفاءِ وتواري قامةِ انسان .وعندها سيُحقِّقُ الاثنانُ لقاءَ اللهفةِ خِلسةً، وبلا عَين فُضولٍ تكتشفهما ..ترمي وجهَها على صَدرِه وتشمُّ نَحرَه (عناقُ الرّوحِ للرّوح) ، وبدوره تمرُّ شفتاه على وجهِها فيطبعُ شوقَه على وجنتيها البارزتين المظللتين برموشٍ سودٍ نافِرة، ويدفع بأناملِه بين طيّات شَعرِها الفاحمِ المُخضَّبِ برائحةِ القُرنفُل المُحبَّب عندَها، مُردِّداً كالمَحموم ":يا غزالةَ الروح".، فتردُّ عليه ، مُشبِّعةً صدرَها من رائحةِ صَدرِه " :يا بُستانَ القلب ".

يُقبِّل جَبهتَها ، فتُقبِّل نحرَه.

ويغيبان ..يغيبان، فلا يستيقظان إلّا على صوتٍ هامسٍ يَتَرنَّم

: زاد الحَلا حِلّه يوم لبسِ فستاني

قلبي تبسَّم له

وغنّى له ألحان.

اللحنُ العَذبُ، واليقظةُ الراسيةُ على مَسرى ثراءٍ مائي أبقاهما عائِمين على كفَّ الهيام وراحلةِ النشوى؛ بينما الرجلُ القادمُ من عالمِ التحضّر يُطالع عناقَهما الخالدَ فيستعيدُ لحظاتِ القصِّ، والكلمات السحرية التي كان يسمعُها من فمِ أمِّه فتنقله إلى عالمِ الكرى؛ والحلمُ بلقاءِ الحبيبين اللذين لم تُعلمُه أمُّه أنَّ الاقدارَ تكالبت عليهما ففرَّقتُهما، وجعلتهما حكايةَ العَذابِ الأبدي، والحرمانِ الذي لا انتهاءَ له.

(3) واحةُ الخَيال ...برهانٌ ضائع

في حالةٍ من الشَّدهِ، وطوفانٍ من الاندهاش راحَ الرجلُ وقد تذكَّر أنَّ مبعثَ وجودِه في صحراءٍ هو البحثُ عن الجَّمالِ مُتمثلاً في غزالةٍ قيل عنها أنّها سَحرت فأغوت؛ وكان هو يَخطو على خَطوِ مَن أغوتهم(لطالما كانَ جَمالُ الغزالةِ بخفَّتِها ورهافةِ جيدِها مَبعثَ افتتانِ وغوايةِ مَن رأى، فأنبَهر) يعيشُ ابجديةَ الصَّحراء كما قَرأ عنها، ويسعى لتحقيقِ مآلِ

عيشِها كما تخيَّلها ...إنَّه الشَّغوفُ الذي جاءَ يَتحرَّى ويصلَ الى كَنفِ الغزالةِ، إلى مَملكتِها التي ترتفعُ فوقَ بوابتِها مفردةُ "الحرية " المتراغيةِ ، المتناسلةِ :حريةٌ في التجوالِ، حريةٌ في العَدوِ، حريةٌ في الانثناءِ، في الاسترخاءِ عندَ ظلِّ شجرةٍ ناهضَت اللَفحَ والهجيرَ ونادَت على الغزلان أنْ تأتي لتنهلَ مِن الفَيءِ البارد، فلا بدَّ من انتهاءِ جَحيمِ الصيفِ على ميدانِ الصحراء، ومجيءِ الانسامِ تحملُ بُشرى تبدُّل المناخ لصالحِ الغزالة ".إنَّ غزالتي المَرجوةَ تعيشُ في واحةِ خيالي " يتمتمُ الرجلُ وهو يُطالعُ سربَ بطٍّ يُغنّي بلغةِ " القاق، قاق، قاق "يأخذُ اتَّجاهاً حدَسَه مَفازاتٍ زارَها المطرُ أثيراً يُغدقُ عليها ماءَ نميرِه، وأنَّها ستنفضُ ريشَها وتتعرَّى لتنزلَ إلى الغدرانِ، تتراشَقُ وتتعابَثُ بكركراتِ الهَناءِ تحتَ القَطراتِ الثقيلةِ الهاطلةِ بجنونٍ أو الرَّذاذِ الهابطِ بانسيابيةٍ وخَدَر.

ومِن بعيدٍ، على تلكَ التلَّةِ الخُرافيةِ(إنَّ حياتَنا لَمليئةٌ بكُلِّ ما هوَ خُرافي.)، والمَشهدُ القادمُ من ثنايا الحُلمِ بزُغت غزالةٌ . كان ظُهورُها كزحوفِ الشَّمسِ تظهرُ رويداً رويدا .حتى اذا

انتصبت بكامِلِ هيئتِها وقعَ الرَّجلُ في وادي الشَّدَهِ، وخانقِ الهيام، وارتفعت في فِضاءِ روحِه تجلياتُ صوتِ السَّائِق الذي أقلَّه بالشيفروليه (يا لتلكَ الرحلةِ باعثة الاسئلةِ الحَيرى، والجة دربَ التيه!!)، وكان طوالَ الوقتِ غائباً الّا مِن تلكَ الدَندَنةِ، والقلبِ العائمِ على غيمةِ الهيام، والكفَّين القابضين على المِقوَدِ

":قال شبَلاك مِدله قلت ضاعَ برهاني

اسبابه الكحلة تَسحِر بالأعيانِ"

وكانت الغزالةُ بعينيها الوسيعتين المُحاطتين بكِحلٍ فاحمٍ هناك على التلِّ الذي شرعَ يدنو مِن ناظرِ الرَّجلِ، ويدنو حتى صارَ على بعدِ امتارٍ ..يرتفعُ خطمُها بشموخٍ، ويتسامقُ جيدُها بكبرياءٍ بينما سيقانُها المُستدِقّة ترسمُ قوَّةَ الثباتِ على أرضِ وجودِها الفاتن ما جعلَه يَنثني سَقَماً .يَستخفُّه الوَلَهُ، تُكايدُه قلّةُ الحيلةِ، ومن ثمَ يرديه الدَّوارُ، فيتهاوى أرضاً .

لقد ضاعَ برهانُه، وهو يُتمتمُ على مرآى مِن جَمعِ رجالٍ شاهدوه فاقدَ الوعي، مَرميّاً على كثيبِ رَملي وقد جَفَّ لسانُه

وتَقشَّرت شَفتاه ":أسبابه الكِحلة تِسحَر بالأعيان"، فنقلوهُ على مَحفَّةِ التَّعاطفِ وراحاتِ الرَّحمة إلى شِعيبهم ...هناك وضعوهُ وسطَ خيمةٍ تَندُه على الهواءِ البارِد أنْ يزورَه فيما شرعَ أحدُهم يُقطِّرُ بَعضاً من قَطراتِ الماء في فَمِه، ويُرطِّب جبهتَه بقطعةِ قِماشٍ مُبلَّلة ..وكان المُتحلقون حولَه يطالعونَ بعضَهم بعضاً وهُم يستعيدونَ وجوهَ اولئِك الذين فُتنوا بالغزلان، وجاءوا وفي ظنِّهم أنَّ الصحراءَ بستانٌ عامرٌ يحملُ قلباً رؤوماً، يَمنحُهم ما أرادوا ، فسقَطوا في بئرِ التّيه، ولم ينالوا غزالةً راودتهم في احلامِهم(هيَ ..هيَ الأحلامُ ؛ حَرثٌ للعُشّاقِ ، تراودُهم أنّى شاءوا.)، وظلَّوا يترنَّمونَ على ايقاعِ لقائِها يوماً، أمَلاً في جَعلِها مُلكاً لَهم ...وكانت دُبي ، مثلَ غزالةٍ ولهى ، تنتظرُ ذلكَ السائق الذي التقى غزالةً تَقطرُ رُموشُها كِحلاً فتَسحِرُ العيونَ، وتُردي القُلوبَ لوعى ..يَجلسُ إلى جانبِه الرجلُ الحالمُ القادمُ من بِطاحِ التحضُّر دونَ عِلمِه بخفايا الصَّحراءِ وغوايةِ الغَزالة.

السماوة 10/5/2018

إذْ المَطرُ يَزورُ ..إذْ الدَّمدَمةُ نَصٌّ

(1) الصَّباحُ كلَوحَة

كان ميدانُ سماءِ المدينةِ يحتشدُ بجيوشِ الغيومِ ودمدماتِ الرعدِ من الافقِ البعيد تَصِلُ كَقرعِ الطُّبول، بينما شَمسُ الضُّحى مِن بين الفُسْحات المُحدِثات خَلل تَفكُّكِ الغيومِ تُماطلُ في بقائِها ذَهبيةً رِقراقةً تغازلُ قَطرَ الندى على أوراقِ الشَّجَر المُرابطِ في الجَّزرَة الوَسطية للكورنيش .والرَّجلُ الذي كَقصيدةِ عاشقٍ يلتَهمُ الرَّصيفَ وقد خَرجَ من شارعِ الأطباء فاتِحاً ازرارَ قَميصِه وبهِ رغبةُ خلعِ سترته والتطويحُ بها كلافتةٍ، الكلماتُ فيها تعرضُ ابتهاجَه بهذا الوقتِ المَسروقِ مِن عَربداتِ الطَّبيعةِ؛ والفراتُ الذي تطلُّ عليه بيوتُ الإماميين والدَّهانيين والقدّوري وبنايةُ رئاسةِ الصَّحةِ التي كانت في ما مَضى مُستشفى تتباهى بحديقةٍ شابَّةٍ وردهاتٍ تُفصِحُ عن نظافتِها وبهائِها يَستيقِظُ على الرَّشَقاتِ فيتركُها تُحِدثُ رَقصاً بفقاقيعَ كبيرةٍ ....رصيفُ الكورنيش يواصلُ

اشباعَ ذائقَتِه من القدمين اللتين تكادان تطيران ، فهُما في ارتفاعٍ وهبوط . وهو بقميصِه المَفتوح الأزرارِ كالمَخمورِ الثَّمل)بائعُ الدُّنيا وما فيها (يُردِّدُ في هَمسٍ مع الروحِ ": ياه كَم أنا سَعيد .!فينتقلُ الهَمسُ دويّاً)دويّاً كصدى قرَعِ الطُّبول (، والطفلُ الرَّاقدُ في حجراتِ ذاكرتِه يَستيقظ على وَميضٍ خاطِفٍ يلمسُ رموشَه ويطلقُ لجفونِه الحركةَ التي تَشبه رَفيفَ أجنِحةٍ .فرائحةُ المَطر لا تشبه أيَّةَ رائحةٍ أُخرى .إنَّ لها هويةً خاصة) كهويةِ الغارقين في مَوجِ الآمالِ العِظام، التائقينَ الى التَّجلّي والتقاطِ ماسَةِ اليقين ..(.والدَّمدَمَةُ)هذا التونُ الصَّوتي المُعربِد (التي هَدرت فجأةً قادمةً من جِهةِ الجَّسر أعادَت اليه، أيامَ كانَ في المَدرسةِ المتوسطةِ، صورةَ مُدرِّسِ مادةِ التاريخ ، ذلك الفارعُ الطولِ الذي كان يَحمل الثورةَ مِشعلاً في رأسِه، وكلَّما قدِمَت مناسبةٌ وطنيةٌ ولمَحَ الاعلامَ مُنكَّسةً فوقَ بنايةِ المدرسة، وعلى هامةِ مَبنى القائمقامية التي يَمرُّ من أمامِها يومياً، تكدّرَ واكتأب .وإذا ما هَدرَت السماءُ رَعداً ونظرَ من نافذةِ الصفِّ إلى الحشودِ السوداء تَعرضُها طَبقةُ السَّماءِ الأولى راحَ يُردِّد:

" دَمدمَ الرَّعدُوهزّتنا الرياح

حَطّموا الأغلالَ وامضوا للسلاح ".

ولم يكُن ثمَّة سلاحٌ للطبيعةِ سوى المِطرِ، مَسبوقاً بالزمجرةِ ، مُنتهياً بدموعٍ تجري غدرانا في الشوارع، ثم صمتٌ يبعثُ برقيةً للشمس أنْ تأتي على بِساطِ الصَّحو وزُرقةٍ شذريةٍ تلوحُ ببسمةٍ (تلك البسمةُ إمّا هي سعادةٌ مَقرونةٌ بسكونٍ أو سُخريةٌ من طَبيعةٍ تَغضبُ وتغضبُ ما تلبث أنْ تستكينَ فترفعُ رايةَ الاستسلامِ للهدوء.) ..يرى وهو الطالبُ آنذاك، كما يَرى أقرانُه الطَّلَبةُ في الصفِّ، عَيني استاذِهم تعجَّان بالبريق أولاً، ثم الغضبِ، ثم بالبؤسِ تَتَّشِحان (فلا رياحٌ تهبُّ فتهزُّ أَسرَّة النيام، ولا دَمدمةٌ توقِظُهم ليكسروا الأصفادَ المَشدودين بها الى الأسرَّة) .ما يلبث أنْ يهزَّ رأسَه تململاً، ثُمَ يرمي بنظراتٍ تائهةٍ إلى بلاطات الصفِّ الرمادية .

إنّه سعيدٌ في(وبـِ) هذا اليوم المُمطِر (رجلاً آثرَ الحريةَ مُنطَلَقاً، وصولاً إلى التَّحليقِ الحُر)، وإلى جانبِ الاحساسِ بالسَّعادةِ ينبثقُ في رأسِه سؤالٌ مَصحوبٌ بالحيرةِ وهو يرى

الشَّوارعَ تَخلو من المارَّةِ، وبعضُ المَشاةِ يهرَبون إلى مِظلاتِ الدَّكاكين ليحتموا بها :لماذا يهرَبُ الناسُ من المَطرِ مع أنَّه حَمّامٌ مَجّاني، يغسلُ أزقَّةَ النَّفسِ مِن عِلل الخُمولِ والضُّمور والتجلمُد، ويَسقي يَبابَ الروحِ بنَميرِ ماءِ النَّقاء فَيُنتِجُ عالَماً يقولُ عَنه الفنّانون الرسّامون "اللوحةُ المستحيلة " ،، ويقولُ عَنه الشُّعراءُ " نصُّ الجَّذل"، فيروحُ أحدُهم يتغنَّى:

مَطرْ ..مَطرْ يا حَلبي

عَبّر بنات الجَّلَبي

مَطرْ ..مَطرْ يا شاشا

عَبّر بنات الباشا

(2) السّياحة في بُستانِ الماء

كان للدَّمدَمةِ فِعلُ الخروجِ عن نَسقِ الكورال والتخلّي عن الهارموني التوافقي، بل قرارُ احداثِ الفوضى بتفجّرٍ أوجَد حالةً من الارتباك عمَّ المَدينةَ وعبأها بالمفاجآت ..الأشجارُ

تتلاطمُ، وأسلاكُ الكهرباءِ تَتشابكُ مُحدثةً القرقعات الضوئية والأزيز المُخيف، والفأل المُرعب ..أمواه.. أمواه.. أمواه(هل ثمّة مُنتهى؟ ..!هل مِن أوانٍ للتوقُّفِ ؟ !)..أمواه.. أمواه ..أمواه .

واذْ انصَرفَ بعضٌ من الوقتِ ضاعَت هويةُ الشّوارعِ وبقيت للأرصفةِ فقط هيبتُها تستقبلُ الفارّين مِن الهَديرِ القادم . غاصَت عَجلاتُ السيارات في دَفَقِ المياهِ وعَدوِها، وأعلنت الميازيبُ بُشرى سَعادتِها بعَرضِ شلالاتِها المُصغَّرةِ تَضرِبُ بلاطات الأرصفة ..إنَّها في أوجِّ اشتغالاتِها البنيويةِ في ساحَةِ سَردِ البيوتِ والعماراتِ، ومَنظومةِ الدكاكين التي تَرى أصحابَها يَنظرونَ بعيونٍ يشوبُها الدَّهَشُ، وسِحناتُ وجوهٍ تَطغي عليها الأنسامُ البارِدةُ الرطِبةُ، وترشقُها مَوجاتٌ مِن الرَّذاذِ المُتماوِجِ بتأصيلِ ريحٍ غَوغائيةٍ لا اتِّجاهَ لها .ريحٌ جَعلت الحَمامَ والعصافيرَ في حَومَةِ حَربِ شرِسةٍ(إنَّ الحروبَ قواتلٌ، لا يُرتجى في أمرِها سِلمُ)، تَبحثُ عَن مَوانِعَ وسواترَ دفاعيةٍ لتفادي هذا الجنون الطبيعي ..وتذكَّر أنَه

سَبق وشَهد مِثلَ هكذا جنون عندما كانت المواضعُ التي حفرَها مع أقرانِه الجنود(يومَ سيقَ كَخروفٍ أثول وودَّعته أمُّه بدموعٍ حَمراء)، واتَّخذوها ملاذات تَقيهم بُغضَ قذائف هاونات تأتي من مواقِع العدو بأزيزٍ مُدوٍّمٍ ينتهي بلَطمِ الأرض، وإحداثِ حُفرةٍ تشبه جَوفَ قَبر ينتظر جَسداً فارقتهُ الروح صاغرةً وارتفعت إلى عليين مُجبرة .سَبق وطالعَ جُنونَ السَّماءِ يومَ كان طفلاً، فتذكَّر هو الذي باتَ شاعراً يُصوّرُ الحياةَ بعيني فاحصٍ يُقيّمِ تَعملقَ الأغلال واستهتارَها.(كانت الأغلالُ أكواخَنا المترامية ومَعها البيوتاتُ المُتهالكةُ الآيلة الى الاندثار؛ وذلكَ المَطرُ بقَدَرِ ما أحببناه كَرِهناه ونَحنُ نرى أباءَنا وامهاتنا يستنفرون الطّاقات وفي تَذمُّرٍ يولولون، قابضينَ على المَساحي، ومنهمكين في عَملِ تعلياتٍ ترابيةٍ كسواترَ تَصدُّ اقتحامَ المياه الصَّاخبة إلى اعشاشِنا المُتهرِئة بينما كان لونُ الرمادِ يزدادُ في سَمت السَّماء دِكنةً ، واسوِداداً فتتكدَّرُ وجوهُ آبائنا لأنْ لا نيَّةَ لمشاهدةِ الزّرقةِ الصّافيةِ آتية، ولا أملَ بمجيءِ الشمسِ كفألٍ يَشي بالطُمأنينة.) ..وإذْ نتوجّه بعدَ وقتٍ إلى سوقِ المَدينة نُفجَع لمشاهدته وقد استحالَ

وسَطُه نهراً ورصيفاه ضفتين يحاذي الماءُ حافَتَهما العلويتين، وعيونُ أصحابِ الدكاكين تبوحُ بقَلقِ ارتفاعِ منسوبه، فارتفاعُ مليمتراتٍ قليلةٍ يعني حدوثَ الكارثةِ لبضائعِهم المُكدَّسَة في دكاكينِهم، لذا تراهم يَرفعونَ الانظارَ إلى السَّماء .يُمكنُ قياسُ تكدُّرهم أو ارتياحِهم من لونِ الغيومِ وكثافتِها أو تبدُّدِها ..وما الغيومُ في هذه الصَّبيحةِ الباردةِ إلا إذاعةٌ تترقبُّها النفوسُ الحائرةُ، الصّاغرةُ لقَدرٍ لا قِدرةَ لها على ايقافِه وكبحِه واعلانِ الانتصارِ عَليه، مُستمعةً إلى بياناتِ الطبيعةِ المُعلِنة ثورةً مائيةً تصاحبُها غوغاءٌ رياحيةٌ لا تأبه لاحتجاجاتِ العيونِ الغارقةِ في الذُّهولِ وهي ترى مَطراً لا سابقَ له، ولا تعيرُ هَمّاً لخشيةِ مَخلوقاتٍ بَشريةٍ شرَعت تكتشفُ في السنينِ الأخيرةِ أنَّ ثمّةَ سونامي ستتوقعُه يضربُها في أيِّةِ لَحظةٍ(كان السونامي التاركُ آثارَه في الذاكرة يَعودُ لأيَّامِ صِبانا عندما استفاقَ سُكّانُ المدينةِ على مياهٍ دافقةٍ تقتحمُ الأزِقَّةَ وتهاجمُ البيوتَ؛ والنَّهرُ يَخلعُ مِعطَفَ ضِفافِه التي تمزَّقَت وتهرَّأَت جَرّاءَ قوَّةِ مائيةِ جَبروتية مَرَّت في طَريقِها على الأريافِ فدَمَّرت القُرى وأطاحَت بهيبةِ السَّواقي والسواتر الترابيةِ

المتواضعة ...صَرخ الناسُ خارجينَ مِن بيوتِهم واجفي القلوب، هَلعينَ ، ومُرتعبين ":يا الله !! ما هذا الهول ؟!، أيُّ صَخَبٍ مَقرونٍ بعنفٍ ورهبةٍ هذا؟!، أيُّةُ حَربٍ غَيرُ مَتكافئة تَشنُّها الطبيعةُ علينا نَحنُّ العزّلُ الحافظينَ براءَتنا في صَندوقِ الغيب، وتاركين أمرَنا إلى السماء؟!)

وكانَ هوَ وسَطَ العُنفِ المائي، وانفجارِ السَّماء بِرعودِها يساوره شُعورٌ باللَذاذةِ والدَّهَش؛ رائياً بالذي هوَ فيه لَوحةً لرسَّامٍ مَوهوبٍ قَبِضَ على اللحظةِ الفنيَّة الرائعةِ لئلّا تفلتَ مِنه، وتضيع .فتتركُه يعيش النَّدم طويلاً على فرصةٍ لم يُحسِن صَيدها بشِباكِ بَراعته وشعوره العارم لِحيازة الجَّمال.

(3) البَطل يَلهو وَحيداً

مُنذُ اقتحمت نافذتَه، ودَفَعت بتيارٍ باردٍ رَطبٍ وهو يَشعرُ أنَّ زائراً يَحمِلُ البُشرى بِسَخاءٍ ، يَقفُ عندَ عَتَبةِ لَهفتِه ..تلكَ اللهفةُ كانت تَنتظرُ ما يوارب لَها أبوابَ اشباعِها بالصَّفاءِ ، فقد تَراكمَ الحِزنُ على كاهلِها وباتَ يُشكِّل زَمَناً مُريباً لقد

أغرقَ هذا الحزنُ ميدانَ روحِه، وطفا ، وطغا على جَسدِ اللهفةِ.

هَفهفت سَتائرُ نَوافِذِ غُرفتِه مُنبِئةً بما يُحدثُ تَغييراً ويؤسِّسُ تبدُّلات، فَشعرَ أنَّ السَّعدَ يَدنو من روحِهِ خُصوصاً والدَّمدمةُ تُعلِنُ مِن بَعيدٍ حَيانَ قُدومِها وتَدعوه للخروجِ إلى الشَّوارعِ(إنَّها قادمةٌ كقصيدةٍ أرادتها السَّماءُ لإيقاظِ روحِه كي تَنفُضَ عَنها غُبارَ الخَواء) .إنَّ القلوبَ الخائبةَ تُفضِّلُ الخُروجَ إلى الشوارعِ حينما تَدلَهمُ السَّماء ويُدَمدِمُ الرَّعدُ ..فالرَّعدُ لَديها جُملةُ أنْغامٍ تنزعُ على ايقاعِها أرديةَ الهَمِّ، وترمي بالكَمَدِ جانباً كما تُرمى قُبعةٌ إلى أعلى تَعبيراً عَن لَحظةِ ابتهاجٍ ":أنا ينبوعٌ دَنا الجَّفافُ منهُ فرَحمته السَّماءُ بِدَمدَمةٍ اسمعُها جَرَساً للهناء ..يَجِبُ أنْ أنهَض ..إليكِ عَنّي أيتُها السَّتائرُ، واربي الطريقَ الهوائي، ودَعي النَّوافِذَ تَتكلَّم".

وكانَت أسياخُ النَّوافذِ العموديةِ المَعدنيةِ تُعلِنُ عَن استقبالِها للماءِ الذي كان رَذاذاً بادئ الأمرِ فيسيلُ الصَّدأ الأحمَرَ مِن المَعدَنِ الذي قَضى فُصولاً عَديدةً مُلتصِقاً يَنتظرُ لَحظةً

كَهذهِ ".اهطِلْ أيُّها الصَّدأ ..تَصبَّبْ ..سِلْ كَما السَّيلِ، فلا بُدَّ للمَعدنِ مِن وَسيلةٍ للجَلاءِ والظُّهورِ الصحيحِ لأعماقِه ...إنَّ أَعماقَ المَعدَنِ هويةٌ للنقاءِ أيُّها الصَّدأ، فَكفى الهَيمنةُ، وكَفى القيود ...".وبَرُقت السَّماء، ودَمدَمت الرُّعودُ، وسَبِحَت شَجرةُ السَّدرِ التي اظهَرتها احدى النَّوافذُ، وَنادَت عليه شَجرةُ التّوتُ أنْ يَعتلي أغصانَها وينزلُ هابِطاً على جِذعِها الذي تَأهَّبَ لاستقبالِه، وضَحِكَت النافذةُ بِكركراتٍ أشبه بالاصطِفاقِ، ودَعته إلى تَلبيةِ نِداءِ شَجرةِ التوتِ . ولَم يكُن بالخائفِ ولا المُتَرَدِّدِ .لِذا حَرَّكَ كُرسيَ المِنضَدةِ وقرَّبَه مِن حافةِ النَّافذةِ ... وبلَحظاتٍ كان قِرداً سَويّاً يَقفز، ويهبط، وينزل إلى الأرضِ ليتلقَّفَه رَصيفُ الشّارعِ.

كَركرَت صَبيةٌ كانت تَقِف وراءَ زجاجِ نافذةِ غرفتِها وقد شابَه ضَبابٌ فُضّي، ما لَبِثَت أنْ لوَّحت لَه بكَفٍّ شَمعيةٍ كأنَّها تُحييهِ على شَجاعتِه أو تومِئ لَه أنْ لا يَفعل .ففعلُه قَد يوصلُه إلى المَرَضِ الذي تأتي به الرياحُ والدَّمدَمات والمَطر ...وأبصَرته فَتاةٌ حالمةٌ تَعيشُ مُراهقتَها العَنيفةَ مِن

نافذتِها المواربةِ على الهواءِ والمَطرِ، وبيدِها كتابُ " اليوميات "لبودلير، وكانت وصلَت لعنوانِ "قَلبي عارياً " واستقرَّت على جُملةِ " هناك مَن لا يَستطيع أنْ يَلهوا إلا وهوَ في قطيعٍ .البَطلُ الحقيقيُّ يَلهو وحيداً ".وقَد أُعجِبَت بِجملةِ " البَطلُ يَلهو وَحيداً ".وَوجدَت بالذي أمامَها بَطلاً فِعلاً .فكَّرَت بالنزولِ ومُرافَقَته؛ لكنَّ المَسافةَ بين النافذةِ والأرضِ شاسِعةٌ، وليس بمقدورها كاحتمالٍ ثانٍ مُتاحٍ الاستِدارةَ والخُروجَ من البيتِ لِمصاحبتِه .فالأبُ والأمُّ والأُخوةُ هناكَ في الصّالةِ يتكوَّرون، مُجاهرينَ بخشيتِهم مِن الدَّمدَمةِ، ورُعبِهم مِن البَرق الذي قَد يُنتجُ صاعقةً تَمحقَهُم ..تلكَ اللَحظةِ شَعرت أنّها مُكبّلةٌ بِسَببِهم، فساوَرتها كآبةٌ، وناهضتها كَوابحٌ ..ولَم تَحُر رَدّاً على رغبتِها الجامحةِ والمَطعونةِ إلّا بأنْ رَفَعت كِتابَ بودلير، وهَتفَت :الْهوْ وَحيداً أيُّها البَطلُ، فليسَ لي إلّا أنْ ألهوَ وأنا في قَطيع".

(4)عاشقان جرَّهُما الثَّمَلُ

ما زالت الدَّمدَمةُ تواصلُ ترجُّلَها في سَماءِ المدينة وتتحركُ راحلةً؛ وما زالت الغُيومُ تَحتفظُ بالدِّكنةِ وتَتشبَّعُ بلونِ الرَّمادِ السَّارقِ مِن الرياحِ الغاضِبةِ اسوداداً يَتبدَّدُ مَع توالي اللحظاتِ؛ والمَطرِ الهابطِ بمِجونٍ ، يَتركُ فسحاتٍ من الازرقاقِ الباحثِ عن البياضِ المُنبئ بِمرورِ الغيمِ وعدمِ ثباته .ذلكَ يَعني أنَّنا نتوجّه بمضمارِنا الزمني إلى وَقتِ الضُّحى .وذلك الرَّجلُ الأربعيني يَخطو على الرَّصيفِ العَريضِ لشارعِ الكورنيش وقد انتشى بِساعةٍ قَضاها فارِداً الذراعين تِرحاباً بالزائرِ المائي ، يردِّدُ في فَضاءِ الرّوحِ " : أيُّها المَطرُ الفَتى :أُصافِحُ عِشقَ حُضورِكَ الكوثري هذا ، وأعدو جَنّةً تتناثرُ سَلوى، وتَتبعثَرُ هَناء .. ".يراه الذين يَحتمونَ تَحتَ مِظلات الدَّكاكين، (واولئِك الذين تَظهرُ وجوهُهم مِن وراءِ زُجاجِ نوافذِ الغرفِ العليا لبيوتِهم المُحاذيةِ لشارعِ الكورنيش، المُطلّةِ على الفراتِ الواقعِ تَحتَ تأثيرِ رَشقاتِ الماءِ واندفاعات الرّياحِ القادمةِ دوّاماتٍ) فيأخذونَ

في تَوقعاتِهم أنَّ الجُنونَ مهيمنٌ على الذات، وأنَّ التَّصرُّفَ بهكذا فِعلٍ غَيرِ سويٍّ ما هوَ إلا تخبطٌ يَرتكبُه مَخلوقٌ يُجافي القانون الطبيعي، إذْ المخلوقاتُ تتأى هاربةً مِن هَمجيةِ المَطرِ وصَاحبتِه الرّياح، فالكلابُ تَعوي وهيَ تَتعرَّضُ للرشَقاتِ، والطيورُ تأوي إلى أعشاشٍ وزوايا وجُحورٍ، هاربةً، مُرتجِفةً، والبَشرُ يتراكضونَ مِن عدوٍّ سيطلقُ عليهم رَصاصَ الفايروسات وهُم في خِشيةٍ مِن بَردٍ يُقعدُهم مَحمومينَ ويتركُهم يأنّون لأيامٍ يَستعينونَ بأقراصِ الدَّواء والسوائلِ السَّاخنةِ .فَما لَهُ هذا الرَّجلُ يَستقبِلُ المَطرَ كاستقبالِه لِصديقٍ انتظرَ لقاءَهُ طَويلاً؟ ...!السؤالُ المَقرونُ بالتَّعجُّبِ سِرعانَ ما أثارَ دَهشَةً في نُفوسِهم واسقطَهم في شِباكِ الذُّهولِ عندما شاهدوا مِن بعيدٍ امرأةً اربعينيةً هيَ الأُخرى تنعطِفُ مِن شارعِ الجِّسرِ وتدخلَ شارعَ الكورنيش بقميصٍ ورديٍّ داكنٍ وتنّورةٍ بَيضاءَ قَصيرةٍ وقد أمسكَت سِترةً بلونِ التنّورةِ ورفَعت ذراعيها تِرحاباً بالمَطر .شَعرُها الاسودُ الفاحمُ الطويلُ استحالَ سواقيَ للماءِ يَسقي قَميصَها مِن جِهةِ الظَّهرِ؛

ونهداها النافرانِ الممتلئانِ كانا يَستقبلانِ الرَّشقاتِ فينعمانِ بالانتصابِ والنُّفورِ ...هلْ كانَ الرَّجلُ يَعلمُ أنَّ ثمَّة مَخلوقةً تَعشقُ المَطر مثله ستواجهُه بعدَ دقائق ..وهل كانت المرأةُ تَعلمُ أنَّ ثَمَّة مَخلوقاً يَعشقُ المَطر مِثلَها سيواجهُها بَعدَ دَقائقَ؟ ...فَقط المَطرُ كان يَدري، والرياحُ هِي مَن أيقَنَت أنَّهما سيلتقيان، وتستحيلُ فَرادةُ اذرعِهما المُرحِّبة بالزائرِ النازلِ مِن السَّماءِ ستتحولُ إلى تَشابكٍ وعِناق ..سيقولُ أحدُهُما للآخر :ما أعذبَ أنْ يكونَ المطرُ مُعمِّدَنا !وما أبْهى أنْ نَخطو على ايقاعِ العربَدةِ السماويةِ ...!مَرَّت بمحاذاتِهما سياراتٌ تَرشِقُ زجاجَها كِتلُ الماءِ البلورية، وكانت ماسِحات الماءِ في أوجِّ اشتغالِها كيما تَصنع رؤيةً مُتاحَةً للسائقين الذين صاروا يُطلِقون النَّفيرَ دعوةً للغارقينَ في أتونِ الهُطولِ المائي سَعياً لإنقاذِهما بينما تَشابُكُ الأصابعِ وتَقارِبُ الكَتفانِ مَثَّلا الجوابَ الأدقَّ ، والرَّدَّ القاطِعَ على النَّفيرِ المُتقطِّعِ، وسطَ تَخيُلِ الرِّجالِ خلفَ الزُّجاجاتِ والماسِحاتِ المُنهمِكاتِ في ازاحةِ المياه أنَّ ما يُبصِرونَ لا يَتعدّى هَيكلي مَجنونينِ ،

والمَجانينُ بِعُرفِ الأصِحّاءِ لا يُدركونَ هَوسَ الطَّبيعةِ ؛ فالمجانينُ لا يَمرَضون.

السماوة

2آذار/مارس2019

الشِّتاء ..العَربَدةُ المائيّة

(1) في قَلبِ الهَول

فجأةً اكتشفنا أنَّ الشتاءَ تسلَّل إلى المدينةِ، وراحَ يجوبُ الشوارعَ ..وفجأةً أعلمتنا الأشجارُ المنتصبةُ على أرصفةِ شارعِ الجسرِ الذي مررَنا به عابرين مِن صوبِ القشلةِ أنَّ الريحَ تلوِّحُ بأكفِّها الهوائيةِ من بَعيدٍ ايذاناً بدنوِّها مثلَ مخلوقةٍ نزقةٍ هوجاء تأتي معها بمطرٍ ينقرُ بأصابعِه على رؤوسِ الأبنيةِ وخدودِها، ويُعلِنُ سعادتَه في اغراقِ الشوارع وإحداثِ سواقٍ تبعثُ خَريراً في الفضاءاتِ الأرضيةِ التي لم تَصلها لوامسُ البناء ..ولم نكُن نعلمُ أنَّ نشراتِ الأنواءِ كانت تشيرُ مُنذُ أيامٍ إلى قُربِ حضورِ الغيومِ بلونيها الفضّي الناصعِ، والرماديِّ الداكن ..غيومٌ أشارت النشراتُ أنْ ستأتي بلطخَاتٍ سَوداءَ تتفاوتُ في خفَّتِها وثقلِها، وأنَّه سيكونُ شتاءً مُمطِراً تتخلله زوابعُ مجنونةٌ ورعودٌ رعناء، تأتي حاملةَ نُذرِ الطبيعةِ الخارقةِ للمتوقَّع؛ فقد ضربت الأمطارُ بعنفِها وغوغائِها مُدنَ

شمالِ البلاد مُحدثةً ضَوضاءً خَبرية وتناقلَ أنباءٍ تصفُ الحالةَ الجويةَ بغرابةٍ تفجّرُ الدَّهشةَ وتؤجِّج الرُّعبَ في النفوس.

نَعبرُ من رصيفٍ هاجت أشجارُه المتباعدةُ توَّاً، فيتلقفُ الرصيفُ المقابلُ ذو البناياتِ العاليةِ أقدامَنا الصغيرة ...كنَّا بسراويلَ قصيرةٍ خفيفةٍ مثل قمصانِنا، ننتعلُ أحذيةَ الصندل ذات السيورِ الجلديةِ التي تشيرُ إلى فصلِ الصيفِ الحار . وكان أصغرُنا أولَ مَن قفزَ هارباً من عنفِ الموجةِ الهوائيةِ التي لحِقت بنا كأنّها تتقصدنا؛ فتعثّرَ، وكادَ أنْ يهوي أرضاً لولا اندفاع أكبرنا بقفزةٍ سبقَت محاولتَنا الامساك به ومنعه من السقوطِ ، فرفعُه إلى أعلى .ولا ندري كيف تعاطفت الريحُ معه فعاضدته في الارتفاعِ وقد بدا كطيرٍ في رحمةِ القَدر .ووجدنا أنفسَنا نعبر إلى الرصيفِ الثاني فرحين سعداءَ كأننا هبطنا مِن سفينةٍ كانت تمخر العُباب وتقاوم الريحَ لنكونَ عندَ شاطئ يقول الأمانَ ويمنحنا صكَّ الانتصار .

ورُغمَ أنَّنا عبرنا إلا أنَّه عبورٌ لم يُحدِث تغييراً رُغم انتصابِ البنايات وعلوِّها مقارنةً بالبنايات التي صارت وراءنا، فقد رشقَ وجوهَنا دفقٌ من رذاذٍ باردٍ، وقدمت ريحٌ تحملُ عُنفاً خرافياً رأيناها تصفعُ الأشجار في الرصيفِ الثاني، فتتمايلُ الأغصانُ، ويتساقطُ الكثيرُ من الأوراق، وتتشكَّل تياراتُ هواءٍ لولبيةٍ ترابيةٍ ضايقَت مارَّةً كانوا يهمّون بالهَرب، وحَماماً شاهدناه يتمايل في مصارعةٍ غيرِ متكافئةٍ، ويتهاوى كأنّه سيرتطمُ ويتهشّمُ وتتناثرُ دماؤه على حافاتِ الرصيف، وتسيلُ فيجرفُها تيارُ ماءٍ شرع بإعلانِ وجودِه كسيلٍ يترادفُ والماء المحمول على اكتافِ العاصفةِ(يا لقسوةِ العاصفةِ إذا جُنّت!، ويا لبؤسِ الطيورِ إذا تهاوت!) .

المشهدُ أيقظَ فينا الفزعَ، وجعلنا نتذمَّر مِن رذاذٍ صار يهاجمُ عيوننا ...ومع هذا كانَ الاصرارُ على المقاومةِ والخروج من هَولِ الجّنون المائي والريحي ديدناً انبثقَ في نفوسِنا.

استطعنا الركضَ مُهرولين باتجاهِ الحَمام الذي تبعثرَ على الرصيفِ وسقطَ بعضُه في عرضِ الشارعِ وكادت السياراتُ

المارّة أنْ تسحقَه ...كانت عيونُ الحَمام الذي رفعناه بأكفِّنا وبحنوٍّ تُفشي رُعباً، وكان ريشُها نقعَ بالماءِ سريعاً، فلم تكُن قادرةً على الطيرانِ والاحتماءِ من جنونِ ريحٍ عاصفٍ لطالما كانت تخشاه فتهربُ للَّوذِ في أخاديدَ وشقوقٍ تنتشرُ في ابنيةِ الشارع.(ومحظوظٌ ذلك الجوقُ من الحَمام الذي رأيناهُ مُنزوياً وقد حقَّقَ النَّجاةَ وأفشلَ غدرَ الطبيعة) ..أبصرنا أصحابَ الدكاكين يهرعون إلى ادخالِ بضاعتِهم المكشوفة خشيةَ تبعثرها وتطايرها، ونساءً يتشبَثن بعباءاتهنَّ ويُحكِمن لفّها على أجسادهنّ خشيةَ طيرانها، ورجالاً مهندمين راحت اربطتُهم تنفلتُ من ستراتِهم المُحكَمةِ الأزرار فتلطمُ وجوهَهم وهُم في حالةِ بحثٍ يفتِّشون عن وسيلةِ انقاذٍ تُبقي ولو لمحةٍ مِن الهندام الذي تمرَّغَ بوحلِ سخريةِ الهوَجِ المَطري.

ولم يكُن مِن مُنقذٍ للجميعِ إلا السوقُ المُسقَّف الذي لوَّح بذراعيه أنْ يتَّجهوا اليه، أو هو شكَّل هوَّةً خيِّل الينا أنَّها راحت تشفطَ الحَمام الذي كانَ يُصارع بما تبقّى من قوةٍ في اجنحتِه، والرجال الذين يأملونَ القبضَ بالكَفِّ على ما تبقّى

لديهم مِن هندَمةِ، والنساء اللائي بدا لنا كأنَّهن يطُرنَ مسحوباتٍ الى قلبِ السوق كُتلاً سوداء ..ولم نشذُّ عن الجميعِ في الحركةِ، فتركنا أقدامَنا ترتفعُ عن الأرضِ وتعطي الحريةَ لفمِ السوقِ الذي تلقَّفنا، فمنحنا فُسحةً من هدوءٍ سرعان ما حفَّزنا على النظرِ الى الطريقِ وهو يغرقُ بهديرِ الماء، وجعلنا نُصغي بذهولٍ الى ريحٍ حملت جنونَ الطبيعةِ، وكلامِ شيخٍ كان يعيشُ الدهشةَ وهو يصرخُ بذهولٍ :هذا ليسَ مَطراً، هذا اعصارٌ أهوجٌ لم نرَ شبيها له الا ما تنقلُه شاشة التلفاز عَن بلدانٍ بعيدة اعتادت مثلَ هذا الغضبِ السماوي .. يااااااه، ما هذا الهول، يا الله!!!

(2) غَرقى والبَرقُ بَيان

ما كُنّا لِنكرَه الشتاءَ لو أنَّه جاءَ بالبردِ الوديعِ والمطرِ الحاني فقط، بلا عواصفَ خرقاء ولا رياح تَحملُ استهتارها شعاراً لسلوكِ دَربِ الأذى .هكذا تبارت نفوسُنا بالأمنيةِ، وتعالت داخلَ القلوبِ رغبةُ حبِّ المطر .غيرَ أنَّ ما حدثَ في ليلةٍ

بارحةٍ كرَّس بمخيلتِنا صورةً للجنونِ وملمَحاً من ملامحَ طبيعةٍ قالت عن نفسِها ذلك الشتاء أنّها لافتةُ الهَولِ، وبيرقُ الهَوَجِ .فأحدثت جرّاءَ ذلك مآسيَ لأغلبِنا وآلاماً مُرّةً في نفوسِ الأهلِ ...جاءنا شَوكَت بيدين موحلتين والقذى في عينيه يختلطُ بالدموعِ المسكوبةِ تدفقاتٍ على خدّيه الأسمرين المتقشّرين من ظُلمِ البردِ المُتجبِّر منذُ أسابيعَ ليقولَ أنَّ جدَّتَه توفَّت في ساعاتِ الصباحِ الأولى بعدما هطلَ المَطرُ لساعاتٍ وتسرَّبَ في أولِ الأمرِ مُتسلِّلاً الى غرفتِها المفروشةِ بحَصيرِ الخوصِ ما لبثَ أنْ تدفَّقَ سيلاً فأشبعَ الفِراشَ الاسفنجي بالمياهِ المُخضَّبةِ بالطينِ السَّائلِ وتركَها ترتجف في رَعَشٍ لم تنقذها منه كلُّ بطّانياتِ البيتِ التي راكمناها فوقَها فلفَظت أنفاسَها الأخيرةَ مرغَمةً، وعيناها تتضرَّعان أنْ ننقذَها من المُختلس المُتربّص الذي ترى طيفَه يدورُ حولَها ويوشوش في اذنِها وشوشةَ التَّشفّي ويرقصُ على ايقاعِ المَطرِ الأحمق بينما جاءنا غريبُ يُعلِمنا بخبر انتشرَ بين ناسِ المدينةِ كالبرقِ في السَّماء وكنّا الوحيدين الذي لم يَصل مسمَعَنا .قال أنَّ حَشداً يتجمَّع في بابِ المستشفى يتسقَّط

أخبارَ عائلةِ مجلّي الحمّال التي انهارَ عليها سقفُ الغرفةِ الوحيدة التي تجمعَهم، وهُم الآن سبعةُ أنفارٍ جَرحى مُهشمَّي العِظام وفي غيبوبةٍ طويلةٍ، يجاهدُ الأطباءَ المسعفون في ابقائِهم على قيدِ الوعي ولو بأملٍ ضئيل .فهرعنا راكضين صوبَ المستشفى غير آبهين بالجاني الذي غدا مَع وقتِ الضحى رَذاذاً يكايدُ الشمس التي كانت تُعلن عن نفسِها من بين غَماماتٍ سوداء تملأُ السماءَ وتحاولُ الهبوطَ لتجثُمَ على نفوسِنا ساعات النهار ..أمّا حَنين التي كانت تنضمّ لجمعِنا في لعبنا في الزقاق وكانت تَسقينا اللَبَن من عَنزةِ جدِّها المربوطة في الخرابةِ المُلاصقة لبيتِهم المتهالك عندما ترانا عائدين من البَساتين الشرقية تتأرجحُ من أصابعِنا أرجلُ العصافيرَ الميتةِ التي اصطدناها بالمَقاليع فغابت عنّا، ولم نَرها اليوم .ولم يَدُر في خاطرِنا أنَّها ماتَت بصعقةٍ كهربائيةٍ عندما أرادت ازاحةَ سلكٍ مُتدلٍّ مِن السَّقفِ عن أمِّها العَمياء التي كانت تخوضُ في مياهٍ غَمرت حوشَ الدار فصُعِقت وسقَطت دونَ حِراكٍ.

لقد كرِهنا الشتاءَ كُرهَ امهاتِنا للموتِ الذي يقطفُ بين حينٍ وحين ثمرةً من ثمرات زقاقِنا فيجعل الكآبةَ وباءً يغزو الأرواحَ ويترك الكَمد مُتبختراً في بيوتاتِ المدينة وأزقتها باحثاً عن روحٍ غافلة ليصطادَها ...وصرنا ما أنْ ننتهي من فصلِ الخريف حتى يأتينا التشاؤمُ بغيومٍ سوداء تَلوحُ من بعيدٍ كزائرٍ غيرِ مُحبَّبٍ، وتغدو الأيامُ القادمةُ تباشيرَ قلقٍ لا ينتهي؛ ذلك أننا نخشى فقدَ أعزاءٍ لنا لا قدرة لقلوبنا على محوِهم من أسطر اعمارنا، وكُرّاسِ الذاكرةِ، فنهتفُ في نفوسِنا الملتاعة : أيُّها الشتاءُ الأرعنُ المهووسُ بالأذى، ابتعد عنّا ، ودَع العامَ كلَّه ربيعاً، وصَيفاً، وخريفاً، خلوَّاً من أقدامِك الرعناء التي تدوس هباءَنا وصفاءَنا وتجعل مِن أحلامِنا نثاراً بفعلِ أنفاسِك الهوجاء .

(3) مُعاناةٌ ...فالوقتُ خَطْب

في ما مضى من الأعوام كانت مدينتنا التي تتربَّصُ بها الصَّحراء لتبتلعها ويحرصُ الفراتُ على عدمِ التفريط بها فيمدّها بالإغراء المائي كي تبقى جارةً له، تَتحسَّب لطوارئ

الشتاء وتهيئ مُستلزمات السيطرةِ على المواقف والتجاوز عليها ، لكنَّها هذه المرَّة أعلنت أنَّ هاته المستلزمات ما هي إلا محاولات بائسة ويائسة تبعث على السخرية المُرَّة، فالقادمُ القريب من الساعات يُنذر بالثبورِ وينادي بالويل، وما هذه الريح التي نراها الآن تصفع وجوهَ الأبنية فتدميها بالماء وتضرب هامات الاشجار فتذلُّ كبرياءَها وتولول بهواءٍ أخرقَ يُشعرنا كأنَّنا ريشٌ يوشِك أنْ يطيرَ إلا ترجمةً لمعركةِ ريحٍ مائيةٍ تُدرِك انتصارَها مُسبَقاً.

ذلك الصباح المدلَهِم رأيت جدَّي الذي كانَ بمعطفِه الصوفي الاسودِ السميك ينتصب في وسطِ الصَّالةِ مكتئباً يطالع زجاجَ النافذة وهي تتلقّى رشقات المَطر المتلاطم مدويّةً، صاعِقةً . بجانبه منضدةٌ تتراكمُ عليها أوراقُ تدويناته عن حادثةٍ أرادَ جعلَها مِثالاً لرؤيةٍ هي محورُ مَقالةٍ سينتهي منها ":المطرُ بكاءُ السَّماء على أرضٍ يدوسها الانسانُ الجاحِد بعقبيه ".

كانت شجرةُ السِّدِر الهائلةِ التي تنتصبُ على رصيفِ الشارع المُقابل لبيتِنا ويطالعُها جَدّي آنذاك بكآبةٍ قد وهَنت، بعدما

كافَحت وبكلِّ اصرارِ الشَّجر الذي لا يموت الا وهو واقفٌ، بفعلِ الريحِ الهادرِ، العاصِف، القادمِ مِن كلِّ الاتّجاهات والذي استمرَّ يصفعُها طوالَ ساعاتِ الليلِ وبدَت كليلةً كأنّها شجرةٍ تعيشُ الشيخوخةَ وتستسلمُ للذواء ..ينهالُ عليها الماءُ الهاطلُ مِدراراً بعد أنْ هبَّت عليها رياحُ الشّمال الآتية من جهةِ النهرِ(إنَّ ريحَ الشمالِ شتاءً هويةٌ تُنبىء بالمطر) . أوراقُها الخضراءُ الصغيرةُ التي اعتادت أنْ تكونَ مَشوبةً بغبارٍ تُحدِثه حركةُ السيارات المارّة في أيامِ الصحو استحالت لامعةً وأكثرَ دكنةٍ، لاسيما والمطرُ يمرُّ عليها بهيئةِ خيوطٍ مائيةٍ تترك صوتاً أشبه بالكركرةِ، أي كما لو أنَّها تضحكُ لأنّها لم تستحم مِن زَمان، وكما لو أنَّ الفتيات الثلاث اللائي شاهدناهنَّ يهرعنَ إليها للاحتماءِ بها رُغمَ أنَّهن يرفَعن المظلات أعلى رؤوسهنَّ اتقاءً واكتشفنها على وشكِ الانهيارِ وتحطمها كدفاعاتٍ ساترةٍ لقاماتهنَّ، لأنَّ المطرَ لم يكُن مَطراً إنَّما نَهراً يجري فوقَ المظلات .. وكانت السماءُ تطلق رصاصَها المائي على هيكلِها فيسلك مَجرى الأغصان فتستحيلُ أنهاراً تجري فوقَ رؤوسِهنَّ، وأضحى عبورهنَّ

للرصيفِ الآخر والاحتماء بالبنايات العالية من عِداد المُغامرةِ غير المحمودةِ بفعلِ الشارعِ الذي صارَ نَهراً يجمع مياه البحار والمحيطات ذكَّرَهُن بالنيل الذي قرأنَ عَنه في مناهجِهنَّ الدراسية أنّه حينَ كانَ يهدر هَوجاً ويفيضُ تخبّطاً لا يتوقّف إلا بأجملِ فتاةٍ تُساق مُجبرةً فتوهب له(كلُّ واحدةٍ صوَّرَت المَشهد في ميدانِ قلقِها فتخيَّلت أنَّها الفتاةُ المحتملةُ الاختيار التي ستغرقُ في الهديرِ الحاصل بين الرصيفين فجفَلنَ جميعاً) .أمّا نَحنُ الذي كنَّا نخوض في المياهِ المتدفّقةِ كنهرٍ فذكَّرنا هذا المطرُ الغادرُ بتلكَ السيارات المشبكة وأولئكَ الرجال الذين كانوا في قفصِها يلوِّحون لنا بمناديلَ وخرقٍ موحلة؛ يكلِّموننا بنظراتٍ تُعلِمُنا بانَّهم يُعانونَ من خَطبٍ، ولا يعرفون أينَ يُساقون ...كنَّا نَعرف مثلَ هاته السيارات إلى أينَ تتَّجه .فقد خَبَرنا أقراناً لهم كثيرين كانوا يُجلَبون في الأيام الغائمة الملبَّدة برَصاصِ السُّحُب أو في صهدِ الصيف بمثلِ هذه الوسائط التي تتمثَّل رمزاً للقهر، تمرُّ بمدينتنا، ثم تخرج لتخترقُ الصحراءَ إلى أُخدودٍ بمثابةِ وادي تيه يُسميه آباؤنا " نقرة السلمان"، سالبةً من عيونِهم مشاهدَ

المدنِ ومعالمَها الوردية، وصورَ حبيباتٍ لم يُسعفِهن الحظ بالتلويح بأكفِّ التوديع، والوعد بالانتظارِ حتى لو كانَ الفراقُ دهراً .كان منظرُهم يغمر نفوسَنا بسيلِ المَرارة ودفقِ التأسي؛ وكنّا نلوِّح لَهم بأكفِّنا الصغيرة ونحنُ نتلفت وَجلينَ خشيةَ عيونِ رجالِ الأمن الذين كانوا ينتشرونَ وقتَ مرورِها في الشارعِ الذي تسلكُه ونتحسَّب لشرورٍ يصبّونها على مسامِعنا شتائمَ وتحذيرات بالويل.

نستديرُ إلى الفتياتِ اللاتي احتمينَ بشجرةِ السدرِ وغدرت بهنَّ الأمواه المتسربة من بينِ الأوراقِ والأغصان فنلمحُ عربةَ باصٍ توقفت حذاءهنَّ، فاندفعنَ الى جوفِها في حالة انتصارٍ لا يضاهيه غيرُ الانتصارِ في معركةٍ غيرِ متكافئة.

وإذ أودِّعُ الصَّحبَ وأعود إلى بيتِنا أجدُ جدّي قد دوَّن ":يا لها مِن شَجرةٍ عَصماء كم تحمَّلت مِن جنونِ الشتاء !وكم صَمدت وتعالَت على جراحِها والكسور بفعلِ ريحِه، وتخبطهِ، وعَصفه"!

السماوة 20/11/2019

الرَّسَامُ والخَيلُ والرّيح

(1)قَلِقةً فوقَ الرِّيح

كالسَّهمِ مرَّت أو كَريحٍ عاصِفةٍ دوَّت ..ترامَت الارضُ تحتَ سنابِكها؛ فالخيولُ تَستأنسُ الجموحَ وبالعَدوِ عِشقاً تموتُ .أما الرسّامُ فالذهولُ ديدنُه .مأخوذاً بالجيدِ النافرِ والقوائمَ المستَدقّةِ؛ مَسحوراً بالخَطمِ واستدارةِ العينين يُفتنه سوادُهما وتُثملُه الأَنفة الكبرى بالغرّة الكثيفة ..يقول ":كثيراً ما تثورُ الخيولُ على مروِّضيها ."..فالخيولُ أَمنَع مِن أنْ نذلَّها بالقَيدِ، وأَنفر مِن أنْ نُعيقَها بِعائِقٍ؛ وإنَّ الرَّسامَ ليكتِئب وقتَ تَخرجُ خيولُه عَن طورِه ويَنكفئ حَسيراً؛ وإنّه ليَبكي حينَ تُكايدُه الألوانُ فلا يَصنعُ خَيلاً يَتمنّى، ولا يَعطي لِلبيداءِ حَقَّها في استقبالِ الحَمحَمة ...البيداءُ مَزيجٌ من اللَونِ الأصفَر المَشوب بِخضرةٍ فاتحةٍ؛ والبُركَةُ يانعةٌ بالماءِ الأزرق الخَضِلِ تحاورُ النَّخلات الثلاث بينما الخيولُ تَمدُّ أعناقَها في السّاقيةِ تَشربُ وتَشربُ .تَنهلُّ حتى ترتوي ؛ فأمامَها رِحلةٌ حتى السَّماء،

وفيافيَ لابدَّ مِن قَطعِها بِسلام ..تَمرقُ تلك الخيول قَلِقةً في مُخيلةِ الرَّسّام ؛ والشّاعرُ المُتنبي يَزورُه خائفاً مِن سِرعتِها .. لا يدري أهوَ الذي يُدمدِم جرّاءَ انفلاتِها عَن سيطرتِه أمْ الشّاعرُ الذي يُردِّد ":على قَلِقٍ كأنَّ الريحَ تحتي". ؟ .. لدى الخيولِ المسافاتُ تَقصُرُ إذْ تحاورُ الريحَ، والهدفُ يَدنو إذا حَمحَمت، والرَّسّامُ لا يَدَع فرشاتِه تَمشي الهوينى على القِماشة بل يشحذها بِحَجرِ لَهفتِه كي تكون الخيولُ رائقةً لمتلقّيه، تفجِّر فيهم الدَّهشةَ فتتركُ دواخلَهم تهتفُ مَقرونةً بالجَّذل :يااااااااااااه ..! أيُّ خيولٍ هذي التي تأسرُنا خَبباً أو عدواً ؛ وأيُّ بيداءٍ هذي التي توقِعُنا في فِخاخِ النَّشوَةِ؛ وأيُّ رَسّامٍ هذا الذي سَحبَنا من تيهِنا فأدخَلَنا مُربَّع عالمِه وجَعَلنا نَغرق في عَميمِ النَّشوةِ المائيةِ الغامرة؟ ..!إنَّنا أضعفُ مِن أنْ نُقاومه . وأوهى مِن أنْ نَرتدُّ مُنسَحبين ..ذلك أنَّنا مُخدّرون ، مَذهولون، مُستمتعون، مَحكومون بِقانونِ اللَذَّةِ .تبدو لنا الفَيافيَ ميادينَ حوارٍ مَمتِع، والبيداءَ كالحفلِ السعيد؛ فنصيرُ طيوراً نَطيرُ مِن تَلٍّ لِتل، ونسابقُ غَيمةً تِلوَ غَيمة، قائلينَ للخيولِ وهي في أوَجِّ اختراقِها للريحِ إنَّنا نشاركُها المغامرةَ .

فلا التعبُ يَهدُّنا ولا الشَّقاء يَدنو منّا ..إنَّنا مِثلها خيولٌ تَتَمتَّعُ بالخَبَبِ أو الانطلاقِ كالسَّهم ..إنَّ مَن يحاور اللوحةَ يصيرُ جُزءاً منها؛ ومَن يَعشق الألوانَ يستحيلُ رسّاماً.

(2) قَلَقُ الرَّسّام

ها هو يحملُ بكفّه اليسرى حاويةَ الألوان الخشبية وقد تكوَّمت على مساحتِها ألوانٌ متفرقة :كَومٌ أبيض، كَومٌ أزرق كَومٌ أسود، كَومٌ أصفر ..ومتى احتاجَ الأخضر مزجَ الأسودَ بالأصفر .وإنْ أرادَ الرمادي خلَطَ الأبيضَ بالأسود .أمَّا الوردي فالأبيضُ بالأحمر ..وهناك ألوانٌ تأتي مِن مَزجِ أكثرَ من لونين ..كلُّ ذلك تتولّاه الفرشاةُ مأمورةً مِن رَهافةِ ذائقةِ الفنّان أو الموهبة التي تتفاوتُ بينَ رسّامٍ وآخر ..وما بين الألوانِ والفرشاةِ يكمُن فحوى اللوحة.

فالفرشاةُ خادعةُ ..والألوانُ مُكابِدةٌ . لهما قدرةٌ فائقةٌ على التصوير ..وإنّا كقُرّاءِ جَمالٍ لَمنتظرون.

زُبدةٌ برائحةٍ فاغمةٍ تَسيحُ في قَلبِ اللوحةِ، بشرهٍ تمتصُّها قُماشةُ الجنفاص لكأنَّها تبغي اشباعَ دواخلِها الجائعة . تتماسكُ خيوط ُالنسيجِ الأبيض، فالبياضُ ينتظرُ الارتواءَ، والألوانُ زبدةٌ تُشبِعُ الجّائِعَ وتَفي بالغرض .إنَّ خَيالَ الرسّام لَفي تأجّجٍ والروحُ لوعى تَتوخّى سَكبَ عصارتِها ليكتملَ الخَلقَ ..هل هُناك اكتمالٌ لخلقٍ فعلاً ؟ وهلْ ما تستقبلُه القِماشةُ من فَيضِ الألوان لقادرٍ على اطلاقِ الخيول؟ أمُستَعِدةٌ الصحراءُ للاتساع فتمنحها العَدوَ المريح؟ ..يشكُّ الرسّام، ويقلقُ؛ فالاطارُ يُحيِّده .انّه كالقيدِ في المِعصمِ وكالهواءِ الضئيلِ في الصدر ..إنَّ الحزنَ ليطغى؛ وإنَّ الفرشاةَ لتتضايق من تَردّد الرَّسّامِ في أخذِ دورِها بمزج ِالألوان وسكبِها على ذاكرةِ القماشة البيضاء .(هو) يريدُ لخيولِه أن تكون بيضاء؛ وما حُبُّ الأبيضَ للألوانِ الا لتجسيدِ الجَّمال .يريدُها تشقُّ العُباب الأصفرَ الرملي متفاديةً الكثبان، وعلى البُعدِ يُريدُ الغدرانَ تنتظرُ ضيوفَها المسبوقين بالحمحمةٍ، كذلك الواحةُ يبغيها في شوقٍ للفرسان وهم يفكّون

اللثامَ حالَ وصولِهم، مُستقبَلينَ بالشوقِ والدهشِ والاعجاب .. لكنَّها !

كانَ لِحزنِه لونُ الرماد ..وكانت أصابعُه ترتعشُ مِن لا جدوى هيمنتِه على خيوله.

(3) بُكاءُ الخُيول

تتراءى في جَنبِ اللوحةِ هياكلُ لَحميةٌ تَتَكوّم، فلا تركَ لها الاجترارَ الحُرَّ في المَساحةِ القريبة ولا وعدَها بالجري كما تشاء؛ بل قيَّدَها وجعلَها مربوطةً من اعنَّتِها إلى جذعِ شجرة خاملة ..أأرادها كَالجِّمالِ صاغرةً وكَالكِلابِ مُطيعةً؟ ..أتراه يَتقصَّد اذلالَها؟ ..ما قيمةُ اللوحةِ إنْ انتفت منها الخيولُ؛ وما ثمنُ البَيداءِ إنْ لم تتحلَّ بالعَدوِ وشَقِّ الغِبار؛ ما أهميتها إنْ خَلَت مِن الأنفاس اللاهثة؟ أيريدُ للسرابِ أنْ يملأ اللوحةَ بالماءِ الكاذبِ ويُغشي زرقةَ السماء بالتماوجِ المزيَّف؟ .كانت تتشوقُ الى العدوِ فلا تَرتضي نفسَها مَربوطةً تأكلُ وتَنام .إنَّ القَلِقَ ليهرمَ إذا رُبِط، وإنَّ الفرَسَ ليبكي حين يجافيه الفارسُ .

يغالبُ النفسَ بالعزمِ ، يروم ُالأنفةَ ؛ يبغي الكبرياءَ ..لا يريد أنْ ينامَ عن شواردِها بل يُريد للناس أنْ تسهرَ تحكي حكاياتِ عدوِها واسطورةِ سَبقِها للريح وجعلِها التلالَ مندهشةً وتركِها الأرضَ تهتز رَقصاً أو طَرَباً لوقعِ حوافرِها على قلَّتِها لأنَّ أغلبَ عَدوِها كان طيراناً قلَّما تَمسُّ الحوافرُ مَلاسةَ الرِّمال وشوقَه وتتركُ آثاراً بِمثابةِ نِدَبٍ.

جاءَها وقتُ السَحر يتفقَدَها فوجدَها تبكي ..كانت خيولاً تبكي بدموعٍ اشبعَت الرملَ وأراهُ الضوءُ المُنهمرُ من المصباحِ المتدلّي مِن سَقفِ المَرسَمِ لوناً أحمرَ يتداخلُ ولونَ الدموع ... لقد أفرَطَ في اذلالِها، لذلك بَكى هو الآخرُ، وشَعرَ بطَعنةِ سِكّين تمزّق خاصرتَه وهو يُبصرُ عيونَ الخيلِ وقد طفحَت بالدمِ وسالت من المآقي ..سالت بعدما افرَغت الدَّمعَ الرقراقَ ولم يبقَ لها غير أنْ تَسفحَ الدمَ دَمعاً.

كانت أوهى مِن أنْ تَنطلق، أضعفَ مِن أنْ تَتحرَّك ..لوَت اعناقَها وخرَّت مُنهَكةً فقدت ما فيها مِن قوّةٍ ..آنها شَعرَ الرسّامُ بعقمِ فحوى لوحتِه وتفكّكِ دَلالةِ نَصِّه التشكيلي ومَوتِ

مدلولاتِه ..أمسكَ أكبر شفرةٍ يستخدمها ليساوقَ كِتلَ الألوانِ على القِماشةِ وراحَ بانفعالٍ يشبه الهَوَسَ أو الجنونَ يرتكبُ فِعلَ الطعنِ ويمارسُ جريمةَ قتلٍ لحياةٍ كانت سَتمورُ لو أنَّه عامَلَ خيولَه بمثلِ ما تَستحِق وما وجِدَت لأجلِه في البيداء.

مِن كِتاب الصَّحراء

(1) لَوعةُ الغَزالة

على تَلٍّ بمثابة جبلٍ مُلبَّدٍ بالليل يجلس وحيداً .يجلس وفي القلب حِرقةٌ وفي الرأس نار "..ذهبَ الذين أحبُّهم " يردد .. ذهبوا ولمَّا يزلْ في الكفِّ بقايا ارتعاشاتِهم .إنَّه يتذكَّر الآن . لقد غرِق ثَمَلاً في وجهها، وعام على هدي همسِها من بعيد "..استيقِظ !قالت له، " الحقيقة مُرّة نعم؛ الحقيقة مُرة .". كانت السماوة مَجرَّة، وكان قلبُه قصيدةً، وكانت هي غزالةً ". لا ..لا.. دعيني" .." لا ...لا ...دعني أنت".ومررت أنفاسها على وجهه .تناثرت عناصر المجرة والقصيدة اتسعت، أما الغزالةُ فانطلقت تترجم معنى البوادي لتأتيه بما يقلل من نسبة الثَّمَل "..أنتَ تسرق منّي عَبقَ الفيوض، والمَجرَّةُ لا تريد أن تكونَ شاعرَها القتيل .هي تخاف عليكَ . فالشعراءُ يحترقون .كانت اصابعُه تتكلَّم .وكانت الغزالةُ حائرةً، والسماوةُ تتلفَّع عباءتها وتخرج تقطع الدروب لائبة،

متعثرة، باحثة عن آهاته التي تناثرت بقعاً من دم وردي سرقته الورود وأخفته في مخادعها ..الغزالة حيرى ..تتلظى على نار هيامه بها وجمر خشيتها عليه ".إنَّ الحزنَّ لَعميقٌ ".تقول، " والقلبَ في جوى .."وأنا ارقبُ النجمةَ المتلألئة، أرجوها القدوم .فالليلُ قاتلُك ، وسارقُ ساعات انطلاقي ..لنا الفيوض لا الأقفاص، لكم المرارة تأتي بها الحقيقة، فدعني .. حررني من سلاسل شوقك واعتقني من سجن آهاتك؛ وأنا غزالة ...كان السريرُ كتابَ أسى، والسقفُ غيمةً ملبّدة بالكوابيس، والغزالة تتضرّع للمجرّة، والمجرّة تبرر :هكذا هم الشعراء، لهم غزالتُهم التي يبكون ومجرَّتُهم التي يسبحون .. عندما تعودين غداً من الفيوض والغدران ستجدين رمادَ القصيدةِ إلى جانب قلبهِ المحترق..لا.. لا ، لا تقولي ذلك . أنتِ تقتليننني ..لطمت وجهها، وخدّشت خدَّيها ..وبكت .لن تبرح المكان، ولن تتركه يتشظى؛ والفيوض لن تكون من حصتها غداً ...غداً ستجمع أوجاعه في بوتقة روحها، ستسهر عليه .ستدخل روحه وتروح باحثة عن منابت الالم كي تقطفها قبل أن تقض مضجعه ..ابتسمت المجرة، ولم

تكن السماوة ابتسمت من زمان .حدست يقظةَ الشاعر ستكون هذه المرة على بستان يُغنَّي .خمَّنت أنْ سيفتح عينيه على غزالةٍ تنثر على وجهه خثرة الوديان وطراوة الفيوض . قالت :بهذا ستؤجّلين حصادَ المرارة وتبعثين فيه روح الأمل ولو لوقتٍ ..وأنتِ غزالة.

(2)ألمُ الشَّاعِر

ظنَّته فَيضاً فالتهمت المسافات، وصولاً إليه .ما حسبته سراباً سيرديها أدنى غمامات الخديعة ..تمايست غنجاً، وتهادت طرباً إذْ دنت ..فالغزالات يتهايفن ألَقاً ؛ ومرحىً يتقافزن.

أومأت لها الفيوض المتلألئة أنْ تعالي ..وأتت ...!وهناك من حافات مدارات البوح كان الشاعر يتلوى بقلب يحترق، وأصابع جعلها شموعاً تكتب مأساتها القادمة ..فالشعراءُ يتوهَّجون، وشموعاً يذوبون.

الغزالةُ أبجديةُ الحرية وقاموسُ الفضاءِ الرَّحب.

"إنَّ الحرَّ لشديدٌ"!، يتمتمُ الشاعرُ ..و "إنَّ الفيوضَ لمرعاي ".
، تقول الغزالة.

سقيفةُ القصب تصنع ظلاً تقي سهام الشمس يأتي بها السمت الناري ..لكنَّ السقيفةَ لا تنقذ من اللفح" ..مَن أغرقكِ في يمِّ السراب؟ ..."!يقول بلغةِ الشعر ...تجيبُهُ ":ياه . " !!! اجابة مغموسة برمل العتاب الساخن ؛ وترفع خطمَها كبرياءً: "ترسموننا في مخيلتكم ، ثم تطلقوننا إلى التيه والعذاب ، وإذ نعدو غزالاتٍ للميسِ والغنج ترموننا بسهام غيظكم ، وتكتبون القصائدَ عتاباً؟ ...سحقاً ايها الشعراء ..!! انتم مَن سَرقتُم غدرانَ طبيعتِنا " فطبيعتُنا الرَّخاء "؛ وجعلتُم أحلامَنا كلماتٍ تتلاعبون بها "فأحلامُنا العَدوُ الجَّميل والتَّسامي بالنَّزَق .. ".ينقبضُ قلبُ الشّاعر .لا يحتملَ لومَ الغزالة ؛ لا يَحتملَ وَجَعَ قلبِها .إنَّ لوَمَها لَسِهامٌ تترى، وإنّ الوجعَّ لقصيدةُ ألمٍ خالدة .".فعيناها توحيان له بارتكابِ خطيئة، وفعلٍ يُمرضُها، تحنُّ غيمةً بيضاء لساعةِ شمسِ الضُّحى التي أتَتْ بها، يَسقطُ طيرٌ استنفدَ تغريدَه، تتهشَّم الأصابعُ .القلمُ يبكي،

القرطاسُ يُغرِقُه الرَّملُ ..تلوي الغزالةُ عنقَها وتمر مِن أمام السقيفةِ خائبةً بينما يروحُ الشَّاعر يَتعرّى .لا جدوى مِن البوحِ، فالطبيعةُ ما عادَت عَذراءَ .والفيافي انتهكَها الشَّرُّ، تأتي به مَخالبُ الضَّغينة ..الغزالةُ أيقونةُ الجمالِ، لكنَّ الشرَّ صَيّادٌ بغيض .أمّا الشاعرُ فعارٍ إلّا مِن خِرقةِ لسانه يتَّقي بها نوايا الأشرار ..قال :يجب كتابةُ قصيدةٍ أصنعُ بها مِن خِلالِك مَجداً، وأنتِ غزالة .."لَوت جيدَها أَنَفةً؛ عابَت عليه ذاتيَتَه .كانت تُريد أنْ تَفوه بكلماتٍ تصوُّرهُ بَدوياً جَلِفاً لا يفكِّر إلّا بأكلِ لَحمِها، وإشباعِ غرورِ بطنه .أرادَت أنْ تَقول تَمنيتك قَيساً وأنا ليلى وخلتُكَ تُردِّد بشَغَفِ العاشقين" :لمْ تزل ليلى بعيني طِفلةً لم تزُد عن أمس إلّا اصبعا"؛ لكنَّها اكتفت بأنْ أطالت النَّظر في فضولِه وخمَّنت شحوبَه؛ واقتنصت لَمحةً لقلمهِ المُتهالك المتعثّر ولقرطاسهِ الغارق في مَوجِ الرَّمل.

(3)مَوتُ الشَّاعر ...بُكاءُ الغزالة

أغرقَها بِورودِ الكلمات؛ ونَده على ندى الفَجرِ أنْ يتقاطر على شفتيها .قال " :الغزالات بادئةُ بَدءِ الجَّمال، وآخرُ

نهاياتِ الوله .لا حياةَ لطبيعةٍ تَتغنّى بالجَّمال إنْ لم تكُن الغزالةُ مُفتَتحَ سورتِها .ولا مِربدَ للشعراء إنْ لم تكُن الغزالةُ خنساءَها .."يتيهُ هياماً؛ والغزالةُ ترفلُ على خَميلةِ رغبتِه في امتلاكِها .يرسمُ فيضاً تكلّله وارفاتُ شَجرِ اللذَّةِ فتنفرُ الغزالة :

"دعني وفيضُ الواحة، أيقونةُ حياتي المُرتجاة ..لا تأثم يا شاعر الخيال ".يرتدُّ بؤساً، ويغرق في صحراء الحزن . الشمسُ تَتكدَّر لأجلهما .ومن هناك تتبدّى عاصفةٌ تحملُ رملَ الألمِ للمتحاورَين .تُعرِّجُ الغزالةُ على الوادي كي توسِّد رأسَها على غصنٍ يَحتفي بأنفاسِها؛ ويبقى الشاعرُ يودّعها بأسطر الرثاء" .إنِّها تبتعد "!يحدّثُ نفسه" ...البعدُ قصيدةُ شوقٍ لا تنتهي !والغزالةُ شِعري الجميل" !يكتب.

وكانت هناك الغزالة؛ تحاور الروح " :إنهم يغرقون في ثمَلِنا، لكنهم يبغوننا مادةً للقصيدة ..أيها الغصن :تعتريني رجفةُ انكفاءِ الشاعر وموته ..إنَّ الشعراءَ ليحترقون، ويموتون كلَّ يوم، فلا يخلفون غير رماد القصائد تحكي خلودهم ..يتقاطر دمع القلب من عينيها فتشربه وريقات الغصن وتسكر

لإكسيرها ..أيها الغصن .لا أب للشعراء !لا أم ..إنهم أطفال يخوضون في التيه ويتطلعون لسماء لا تمنحهم غير الأسى .." ..تبكي الغزالة .تلوي جيدها وتنهض ..تترك الوادي صوب ظل الشجرة وخثرة الظلال .ستعتذر له عن تعنيفهِ يوماً وتطالبه بسماحة الشعراء لها إنْ هيَ عكَّرت رقَّةَ أمزجتِهم ..ظلَّ الشعراءُ من أمثاله يسكرون بخمرِ وصفِ الغزالة ، بالسرد المغموس في عسل الترجّي والتمنّي في اقتنائها ..لا تسمع إذ تمر من أمام بطاح يؤمهُ الشعراءُ للتطهّر من رجسِ غلواء الشعر وخطيئته غير آهات امتلاكِها والتغنّي برفلِها وعناقِها .لكنهم يعودون إلى مرابعهم وقد ازدادوا خطايا؛ واستحال التطهّرُ رغبةً في طلبِ العذاب . فالشعراء يتعذَّبون.

هالها لحظة الوصول أنْ ترى رماداً ..هالها رؤية الشجرة تنتحب والظلال تسوَد .وطيور خرافية تظهر بغتةً؛ تطلق صيحاتٍ كالنعيب وتتلاشى .وسراب يتلألأ كأنّه يشمت؛ كأنه يغني؛ كأنه لا يبرق ويتوهج بريقاً إلا لحدثٍ مهول.

وهناك ! في الفضاء ثمَّةَ أوراقٌ تتطاير؛ غيمةٌ تتساقط منها الحروف على الرمل فتنبت قلوباً لوعى.

الغزالة تبكي ..الغزالة حروف تتساقط من الورق المتطاير .. الغزالة كفٌّ الإلهام لمن يبغي الاحتراق؛ لمن يتمنى الموت عشقاً.

15/7/2016 السماوة

رَفَلُ الفَراشْات .. بَوحُ الشَّاعِرِ والرَّسّام

(1) الزُّبدَةُ الطّائِرَة

لحظاتُ الصباحِ هذهِ ألهمتني حسنَ طلعةِ النهار، وأرتني فراشةً بهيةً تهفهف بأجنحةِ الجذل ..دنَت منّي بعميمِ بريقِها الساحر، وقرَّبَت ذوقَ رسّامٍ يعشق الالوانَ فيرسمُ الفراشاتٍ تيمناً بعشقِ الطبيعة، وحفاوةً بقوسِ قزح .

أُحدِّثُها عن الورودِ وأُطلِعها على فحوى المياسم فتنتشي ازدهاءً، وبالألوانِ تهيم ...تحدثني عن الفجرِ وعشقِها للندى المتكئ على وجناتِ الزهور، وقصيدةٍ لابدَّ سأقولُها على مرمى قلبٍ منها .

تقولُ " :أتدري أنَّ الفراشات حلمُ الرب ورغبتُه في انعاش البشر.

"فأردُّ راجياً ":لا تحدّثيني عن الرومانس فقلبي ملَّ من شربِ القهوة المرّة ولم يعُد يتكلَّم الا بكِ ...الفراشةُ عند الانكليز

اسمُها الزبدةُ الطائرة، وأنا مخلوقٌ يهيمُ بعشقِ سيحِكِ على مقلاةِ اللوعة، وحرارةِ الوله ...".تذوبُ الفراشةُ لمَّا تسمع .. ذابت ولهاً إذْ وصفتُها بالزُّبدةِ .ذابت رافعةً لافتة الدهشة ": ياااااه !لا تجعلني اذرفَ دمعةً، ولا تتركني لألمِ الفراق؛ أحقّاً ما تقول؟ !أصِدقاً ما أسمع؟ .." !تهتف بهاتيكَ الكلماتِ والتساؤلات، وتنتظرُ الرد .

في ساعةِ وَلعٍ أكتبُ ":إنَّ الجمالَ قصيدةٌ؛ وإنَّ الشعرَ ابجديةٌ بيد الحالمين .أمّا الفراشةَ فرسالةُ الحبِّ من الله الى العشّاق وذوي القلوب المائية الدافقة بالصفاء ..القبيحُ لا يعشقُ فراشةً إنَّما يصادقُ صرصاراً ..هناك فقط من ينافسني على عشقكِ" .."مَن؟ !مَن؟" !تسألني بشغفٍ وتهافتٍ مُنتظرةً الردَّ ، فيتقدَّم اليها الرسّام حاملاً حقيبةَ ألوانه ...ابتسمَ بوجهِها كما لو يعلن مفاجأة" :أنا !أنا عاشقُكِ .."غرقت في بحيرةِ الثَّمَل وعامَت على سطحِ رحيقِ الورود ..شاعرٌ ورسّامٌ يعشقانها ..! إنَّ القلبَ ليهنأُ، وإنَّ الموتَ لبعيدٌ .وما الذي تسمعه إلا قصيدةُ حبٍّ، وما الذي تراه إلا لوحةٌ تجسَّد ثورة الانطباع.

شاعرٌ ورسّام !كلٌّ منهما يُشبِع غرورَها ويُجسِّد كينونتَها ووجودَها الحقيقيين .

كشاعرٍ قلتُ مُعلناً ركوعي في مِحرابِ جمالِها وسورةِ رهافتِها ":حياتُنا كالفراشة؛ إنْ نثرنا لها الزمنَ حقولاً وبساتينَ ومساحاتِ رياضٍ تمايست في فضاءِ السعادة؛ ومن يزرع الزمنَ صحراءً تظمأُ الفراشةُ ، فلا رحيق سترتشف ولا زهور ستلاقي .قطعاً ستكتئبُ، وحتماً ستتهالكُ، مُعلنةً موتها في محرابِ الحرمان ".

أمّا الرسام فقال :الفراشةُ ألوانٌ، وضوءٌ، وطبيعةٌ ..اللونُ عندي، الضوءُ أصنعه، الطبيعةُ أخلقُها ..فقط أخشى غدرَ الصياد ذي القلب المتحجِّر .أهابُ المكيدةَ التي تتجسَّد بشبكتهِ القاهرة ..أخشى وقوعَ الفراشات في الأسر؛ فهنَّ ما خُلقنَ إلا للتحليق وجمعِ العبير من مياسمَ الجمال ..الالقُ حرفتُهنَّ الازليّة، ونهايتُهنَّ في حياةٍ قصيرة تُثير الشجن ". ..نعم قلت " :أحسُّ أنَّ نهايتَهنَّ موعدٌ لانتهاءِ الفرح ..نحنُ نفرحُ كما يزغردُ العصفور؛ كما هي تتهادى عذراء بشغفِها

للحلم؛ كما الحديقة تنده عليها والمرج يَفرِد ذراعي ترحابه ليمنحها عسلَ ورودهِ ..لكنَّ الفراشة وهي تُدرك سرَّ وجودِها وانتهائِها بعمرٍ قصير تبتهجُ لي كشاعرٍ وتأنسُ للرسّام، وتروحُ تترجمُ عمرَها القصير باحتساءِ ما تستطيع من الرحيقِ والعبير .

تتركُني أرسُم الكلماتِ لإنتاجِ قصيدةٍ، وتغادرُ الرسامَ وهو يقولُ اللوحةَ لخلقِ عالمِ انطباعٍ فتندفعُ بشغفِ العشّاق الى التهامِ عسلِ الحياةِ القصيرةِ دونَ اكتراثٍ للنهاية.

(2) خُطى الرَّحيق

لم تنَم تلكَ الليلة؛ ولا استقبلت النوم إذ اقتربَ منها ..كانت بانتظارِ نقرات الفجر على بابِ اللهفة لتنفر، وتُقبِل على عالمِها الجديد ..كان النسيمُ رسالةً تشي بأنَّ القادمَ جميلٌ . والقادمُ صباحٌ وندى، ثم شذا يحملُ الاغراءَ طابعاً لمَن عشِقَ النهار "..لا تلُمني، أيها الشاعر" !تقول، " بل افرغْ عليَّ شوقَكَ المستحيل وانثرْ نداكَ على يبابِ حياتي كي اصبحَ جيشَ فراشاتٍ يُعلن لحظةَ الانطلاقِ للربوعِ، للحدائق،

للرياضِ .عوالمُنا المُبتغاة فضاءاتُنا المُستحبَّة ..بدلَ أنْ تهجو الغيومَ اعشقْ فراشةً .ومن غيرِ أنْ تُعلِن يأسَكَ من قدرٍ جائرٍ اكتُب قصيدةَ الابتهاجِ بنا" .." وهل يهنأ الروضُ بغير الفراشات؟ "!يقول الشاعر مُستفهِماً، مُتعجِّباً، مُعاتباً" .لا تعنفينني بالكلمات، بل اندهي على قلبي؛ دسِّي كفّكِ في جيبِ قميصه .ستتفاجئينَ بالرحيقِ يتفجَّرُ شوقاً ليُغذّيكِ؛ والانسامُ تجسِّدينها رسالةَ ولهٍ كتبتُها منذ أنْ تأبطتُ الفراتَ قصيدةً وحثثتُ الخطى هفواً إلى دجلةَ كي يقصَّ عليكِ سِفرَ فراشاتٍ سبقنَكِ في محاورةِ الربيع والترجُّل على ايقاعِ الندى ؛ ويودِّع عند مرفأ خدّيكِ زوارقَ النسيم، هامساً بمشاعر شاعرٍ جريح يودُّ الشَّفاء :اشبعي من الرحيقِ وامتلئي، فليس بغير الشبعِ يتحقَّق الامتلاء ."

كانت رغبته القصوى هي وصفُها بالكلمات اعلاناً لعشقِه لها كأيقونة تشكِّل مُفتتحاً للبوح ومساراً لإنتاج قصيدة .فالشعراء اغنياءٌ بكلماتِهم؛ وبالرغباتِ يُجاهرون ..كان الوقتُ سَمَراً؛ والسَّحَرُ سُكَّراً في قلبِ قهوةٍ مُرَّة يبغي تطويعَها لتكون آيلة

الى تهذيب ذائقتِهِ كشاعرٍ، وتعطيرِ روحِه كهائم" .أنتَ جزءٌ كبيرٌ من روحي، تقولُ الفراشة بولهٍ ، وقطعةٌ واسعةٌ من قلبي ...كلُّ ذلك ولم أقُل لكَ من قبل ... "يحتجُّ الرسّام لما يسمع من اطراءٍ توجِّههُ الى الشاعر" :إنَّ البوحَ بالعشقِ لتنتجه فرشاةٌ، وتقوله لوحة "يصرِّح بعتبٍ ، ويضيف" :ليس فقط الكلماتُ تفي بالغرضِ .إنَّ لنا اغراضَنا كرسّامين باللونِ والضوء مثلما للشعراءِ اغراضهم بالكلمات والصور .."ثم وبنظرة الى مستطيل قماشته يَتمل ، ويخطو تيهاً في عشقه للانطباع ..يقول مُطوِّحاً برأس فرشاته في فضاء الألوان والدواخل المحتدمة :انظري !سأملأُ لوحتي بالفراشات، لن اتركَ للفراغِ وجوداً .فالفرّاشة بيتُ شعر الرسّامين .هي ابجديةُ الحالمين وعُشّاق الحياة ..بل قاموسُهم ومفتتحُ بهجتِهم .. يسكبون الروح على القماشةِ كإعلانِ تعالقٍ سرمدي مع الفراشات".

تميل الفراشة خيلاءً .تقرر نثر رحيقاً جمعته من مد الورود وحشود المياسم ليكون عربون اثارة موهبة الرسام وحثّه على

الخلق الخرافي بألوانٍ تتماوج على هارموني الرهافة وايقاع الجمال" .الرسّامون، تُتَمتمِ بانشراح، كالشعراء مرهفون، عاطفيون، مجنونون بالجمال تيهاً، وبالألوان هويةً للزهوِ والإفضاء الرهيف .

يراقبُ الشاعرُ من مكانِه على كرسيٍّ ومنضدةٍ سياحةَ الفراشةِ على انتظارات الورود لمقدمِها لتستقبلَها بالرحيقِ العذب وقد حثَّ القلمَ والقرطاسَ على القيام بدورهما بينما وقفَ الرسامُ عند مستطيلِ القماشةِ المتَّكِئةِ على المسندِ الخشبي بأرجله الثلاثة وقد قال للفراشةِ هيّا، وأوعزَ للفرشاة الانغماس في فيضِ الألوان لتجسيدِ دورةِ الجمالِ والجذلِ من أولِ وردةٍ تهبطُ عليها الى آخر واحدةٍ تختتمُ عندها حالةَ الشِّبعِ وفعلِ الارتواء .

(3) تَراجعُ الشاعر ...تَقدُّمُ الألوان

كانت فراشةَ الحلم وطيفَ الشجن ..وكان الشاعرُ حزيناً يكتوي بالأسى.

كانت تقول الحياة وتتبارى مُعلنةً فوز الصباح بالبهجة والفجر بالضياء ..وإذ يطلب منها كشاعر حزين الافصاح عن الكوامن تهتف بلسان السرور " :لنعش يومَنا، ونرسم للغدِ لوحةً لطبيعة ضاحكة تعجُّ بالحبور ..تهمس في مسمعهِ " :تبسَّم ..!يقولُ المَثَلُ الانكليزي : الابتسامةُ تجعلك جَميلاً ، SMILE " Smiling makes you beautiful

....الجَّمال يصنعُ الابتسام ..الابتسامُ يقترنُ بالجمال؛ إنَّ الابتسامَ لسَمَرٌ خرافي، وإنَّ القَندَ عسلُ المحبين ..وحدهم العُشّاق يرسمونَ البسمةَ الصادقةَ وإنْ اكتووا بلظى قلبِ الحبيب ..تبسّم ، إنّا لمبتسمون".

"أنا ابتسمُ يعني أعيشُ الحياةَ المُشتهاة" ، تقول بتفاؤلٍ عجيبٍ، وتكمل ":انتَ تبتسمُ يعني ترسمَ عالماً جميلاً لغيرِكَ، وفضاءً عذباً خليقاً بمن عرِفَ الحياةَ على انّها باقةُ ودٍّ أو

بستانُ مرح أو مجتمعاً يوتوبيّاً في مدينة فاضلة كما يقول ابناءُ جنسك من البشر ...خذوا منّا الحكمة واتَّبعوا سبيلَ عيشنا لساعاتٍ معدوداتٍ لا غير".

يحاولُ الشاعرُ الابتسامَ، يتكلَّف اظهارَ البهجةِ فالفراشةُ التي تخاطبُه بلغةِ الجَّمال والأملِ ستموتُ بعدَ لحظاتٍ، إذ شبِعت من عسلِ الزهور، وطافت رياضَ المدينةِ تجمعُ الرحيقَ ليكون ايقونةً لتفاؤلِها واعطاءَ حكمةٍ للإنسانِ في استغلالِ يومِه للهناءِ والمرحِ وطردِ الوحشةِ والتشاؤم ..يتوسَّلُ بالرسام ادامتَها كمَثَلٍ وصُنعِها ايقونةَ جمالِ ..يتوسَّل اسقاءَها فيضَ ألوانه وضيائه" .هِبها شَهدَ البهاء وامنحها وسامَ الورودِ من بستانِ الطبيعةِ اليانعة!" ... لقد وجدَ أنَّ الكلمات لا تفي بالغرض ولا تُحقِّق ما يُريد حدَّ الاشباع ...اكتشفَ أنَّ الالوانَ خيرُ راسمٍ لفراشةٍ تُعلِن نفسَها حكمةً للعالمين، وأنَّ الرسّامَ مُعبرٌ أمثلُ حين تُناط به مهمةً أزلية" ...إنَّ الرسامَ ليحترق حين الانفعال، والألوان تستحيلُ شموعاً تُضيء مسارَ الرهافةِ وصولاً الى محطةِ تحقيقِ المآل.

يصرِّحُ الشاعرُ، تاركاً لقلمِه انتظارَ لحظةِ التعبيرِ المتوهجّةِ، وللقرطاسِ فرصةَ تأرخةِ قدومِ الزبدةِ الطائرةِ بأجنحةٍ من حبور، تاركاً الأمر لمنافسه الرسّام.

السماوة

10 مايس 2016

فَيْضُ الوردِ العِذاب

"إنَّ القليلَ مِنَ الحَبيبِ كَثيرُ"

المتنبي

(1) حَسَدُ الحُسّاد

ضحكت الوردةُ البيضاء إذ اهملَها الصبي الذي راحَ يقطف قريناتها الحمراء والزرقاء والبنفسجية والصفراء ليصيغَ منها باقةً سيحزمُها بخيطِ حريرٍ لميعٍ ويضمُّها لمجموعةِ الباقات حيث سيقفُ على قارعةِ الطريق كي يبيعها على المارَّة، خصوصاً اولئك الذين يَمرقون بسياراتِهم الصالون وقد هاجمَهم العبيرُ المكدَّس في الباقات المحتشدة تُعلنها سلالُ بيعٍ يحملُها الباعةُ الصبية على الأكتاف فيفضَّلون اقتناء باقة سيضعونها على دشبول السيارة ليفعمهم بشذا توخّوه يشيع داخلَ فضاء القمرة فيخلق عالماً من الحبور، ونغماً يتوافق واغاني الصباح تطلقه فيروز "على جسر اللوزية" ، أو يأتي على لسان زكريا احمد "الورد جميل " وهو يترنَّم برأسٍ يطوِّح

وعينين تُطلقان فراشات الالق كتعبيرٍ عن حالةِ زهوٍ لا تُقدِّرُ فحواه الا الورود، ولا يدركُ تقييمها الا ذوو النفوسِ المرهفة للجمال .

ضحكت الوردةُ البيضاء لأنها تدرك أنْ سيعود ليقطفَها، وسيضمُّها الى اخواتها الوُريدات .هي تعرفُ أنَّ الالوانَ لا تكتمل بالجَّمال إلا اذا كان الابيضُ صاحباً حميماً لها .إنَّ الالوانَ جميعاً تحسدُ الابيضَ، وإنَّ الابيضَ لونُ الينابعةِ الرهيف الذي تتغنّى به الحياة .فلا غرابة بعد ذلك من تنامي الحسدِ في قلوبِ الأخريات، صويحباتها الوُريدات .يحاول الصبي تجاهلَ الابيض تواسياً وباقي الالوان؛ لكنّه يعودُ مُجبرا لضمِّها ، وهو يُرددُ في سرّهِ ":لا يحلو الليلُ الا بالقمر، والسَّحَرُ لا تكتمل روعتُه إلا بالضوء الفضّي القادم من مُشتقات البياض .."نعم ؛لا يقول ذلك علناً ..قولُ ذلك علناً يزيدُ مِن غيظِ القَرينات .

ترمي الوردةُ البيضاء عتبَها على الصبي وتُسمعه قولاً كان المتنبي به يخاطبُ سيفَ الدولة

" :أزلْ حسَدَ الحُسّاد عنّي بكبتِهم

فأنتَ الذي صيَّرتَهم لي حُسَّدا"

سمِعت ذلك من أسلافِها الوريدات البيضاء آنذاك وهنَّ يحفِفنَ البلاط في افاريز تبثّ الضوع العذب وتنثر العبيرَ عالماً للأبّهةِ والبذخ ..لا يدرك الصبي كَنه الوردةِ البيضاء ولا يترجِمُ عتبَها سوى أنَّه همسَ لها يقول :أموتُ فيكِ حبّاً .. كفاني أعشقُكِ لشيئين :روحُكِ بنقائِها ولونُكِ بصفائِه.

(2) قَصيدة الورود

أسعدها أنَّها تتلقّى منه باقةَ وردٍ ضاحكة ، وأبهجه أنَّها تلقَّت الباقةَ وعيناها بسعة قصيدةِ فرح ..قال لها " :الوردةُ رسالةٌ بنفسجية بكلماتِ الروح " فانعطفَ وجهُها ومالَ خجلاً؛ تداركت الموقف بأنْ نظرَت الى وردةٍ أشبعها لونُ الدم، ومرَّت بأناملها على أخرى شربت وبرواءٍ بياضَ الثلج .قالت :

الورودُ تعني الحياة في ربيعها .وكان هو يغرقُ في يمِّ البهجةِ لسعادتها ".إنَّ القلبَ ليهنأ حين المحبّون يسعدون، وإنَّ الروحَ تستحيلُ سحابةَ جذلٍ لحظةَ اللقاء، وإنِّي لفي ظِلالٍ وخثرةِ ألقٍ !يتمتمُ مأخوذاً بِسحرِ بهجتِها .. وكان يُمنّي النفسَ برسمِ لوحةٍ ألوانُها حُروفُ روحِه، وبكتابةِ قصيدةٍ تجمعُ ألوانَ الطيف الشمسي، وبلقاءٍ يخطوان فيه على دربٍ تحفُّه شجيراتُ الورد .زهورُ حدائقِ الطريق تغنّي بكورالٍ يفاقمُ كرنفالَ القلب .وكانت) هي (تتمنّى أنْ يحملَها بين ذراعيه ويعدو، وكان) هو (في رغبةِ أنْ يرفعها عن الارضِ باحتضانٍ حميم، ثم يرتميان في بحيرةِ خيالٍ رسماها يوماً بكلماتٍ تبادلاها كرسائلَ، وصورٍ تحاورا من خلالِها بنظراتِ عيونٍ تعجَّ بهناءٍ ينسكبُ دُموعاً تجري كما ساقيةٍ عَذراء، أو كهطيلِ مطرٍ رقراق، أو ككركراتِ طفلٍ خجولٍ وجدَ الفضاءَ له فانطلقَ حرّاً يُكسِّر قيودَ خجلِه .

مرّا من أمامِ عجوزين يقتعدان مصطبةً وقد ضمَّت العجوزُ باقةَ وردٍ في حضنها والى يمينها القرينُ العجوز يوزِّعُ

النظراتَ على صفٍّ شجيراتِ الحديقةِ الماثلةِ ويقطفُ زغاريدَ العصافير المُحتفية بنهارِها وهي تخافُ قدومَ غروبٍ سيحرمُها من جنَّةِ اللعب التي لا تملُّها ويرمي بها إلى غياهبَ الليلِ العتيم.

سمعا العجوزَ يهمسُ للقرينة ":كان لقاؤنا الأول هنا(اللقاءاتُ الأولى خفقةُ قلبٍ ..رعشةُ أصابع)، أمام هذه التي كانت آنذاك شجيرات قبلَ خمسين عاماً؛ كنتُ جلبتُ لكِ باقةَ ورود بيضاء، وأنتِ اكتفيتِ بزهرةِ القُرنفُلِ تجمّل شعرَكِ الذهبي (أيها الذهبُ تراجعْ أمامَ شعرِها) ..نحنُ نكبرُ والطَّبيعةُ هي، هي تزده .. "تحسَّرت العجوزُ، ثم همّت بالنهوض، تخاطبُه : "هيّا، علينا العودةُ فخطانا تتعثَّر ونحتاجُ لوقتٍ طويل ريثما نصل البيت(البيتُ عشُّنا الخالد ، لم نعُد شباباً فنقطعُها بدقائق ".

نهضا بتؤدةٍ؛ وبتؤدةٍ خطيا فيما(هو) و(هي) انتظرا ابتعاد العجوزين فاقتعدا مكانيهما على المصطبةِ وراحا يطالعان

الاشجارَ العالية ويراقبان العجوزين وهما يجتازان بوابةَ الحديقةِ العريضة ويتواريان خلفَ السياج .

همسَ كلٌّ منهما في دواخلِه :بعد زمنٍ سننهضُ ونقتفي خَطوَ العجوزين؛ ونتحرُك خارجَ الحديقة .

همسَ بحنوٍّ" :ارجوكِ احتفظي بباقةِ الورد ..لا تَدعي الورودَ تبكي ".

ابتسمت)يا لابتسامة المُحبّين الخُلَّص(!، ومالت برأسِها كي ينامَ على صدرهِ بينما دفنت وجهَها في جيشِ المياسم وراحت تستنشقُ روحَه وتردُّ على همسِه :سنكبرُ ونغدو كالعجوزين اللذين تركا مكانَهما لنا ..لكنّي سأبقى كالعجوزِ احتفظ بباقةِ الورد ..ألم تلفت انتباهَك باقةُ الوردِ التي بيدِها؟"

(3) حُزنُ الورود

في الحديقةِ الخلفية لقسمِ اللغةِ الانكليزيةِ جيشٌ من الورودِ يَحتشدُ متدرِّعاً بالألوان الناصعةِ والعطرِ الأخّاذ ..يجلس الطالبُ الشاعرُ مع ورقةٍ وقلمٍ يصاحبانه دوماً)وخيرُ صديقٍ

للشاعرِ القلمُ، والورقةُ، والقلبُ الرهيف ..(يجلس ليكتبَ رسالةَ حبٍّ مَقرونةً بعطرِ الورود وبهاءٍ من التقاها يوماً في حفلٍ صنعته الصدفةُ فكان اللقاءُ، وكان الوثوقُ ، وكان العهدُ الذي انتهى بعد عامين بالاقتران .

صارا يصرفان الأيام على باقاتِ ورودٍ يتبادلانها كإشهارٍ لدوامِ المحبّة؛ لكنَّ الزمن عدوٌ قاهرٌ يقارعهما بانكسارِ الورود وذبولِ الوريقات وانهصارِ المياسم.

قال لها " :لنجعل حياتَنا كالورودِ يانعةً ومعطَّرة ".فقالت بشيءٍ من التقهقر ":لكنّها ستذبل إنْ عاجلاً أو آجلاً ! يُخطئ مَن يظنَّ الورودَ منذورةً للإسعادِ والسرور ؛ وإنِّها لا تبكي أو تتشكّى ... ".وكان لا يُريدُ للمرارةِ أنْ تتقدَّم (المرارةُ خاذلةُ الروح) ولا لخيبةِ الأمل أنْ تستحوذ على سلوكِهما (خيبةُ الأملِ بكاءُ مصحوبٌ بالألم) ، فردَّ بشيءٍ من قوةِ العزيمةِ وتقاسيمَ الاصرارِ على النهلِ من نَميرِ ماءِ الحياة ": قد يتحطمُ الانسانُ لكنّه لا يهزم".

ابتسمت للقولِ ابتسامةَ مّن أُثيرت في قلبِه ذكرى.

راحت نظراتُها ترحل بعيداً، بعيداً؛ إلى حيث كانا طالبين جامعيين يدرسان "الشيخ والبحر" ، والستّ ابتسام، استاذةُ مادةِ الرواية، تتلذَّذ بما يُردِدُه كطالبٍ متميّزٍ بالقراءةِ ولفظِ الكلماتِ بتلقائيةٍ كما يلفظُها الانكليزي صاحبُ اللغةِ الام ... والأدهى أنَّ الست ابتسام كانت تصرِّح بأنَّ اكثرَ مَن يُتقن اللغةَ بينكم هو هذا الطالبُ الذي يُفضِّلُ الانزواءَ ويهرَبُ عن زميلاتِه الطالبات لانَّ له صديقاتٌ كُثرٌ يجالسهنَّ في الحديقةِ الخلفيةِ للقسمِ(صديقاتُ العطرِ، وأيقوناتُ البهاء) ...قولُ الستِّ ابتسام فجِّر لدى زملائِه الاسئلةَ واستداروا يرمقونَهُ بمكرٍ ..زميلاتُه قُلنَ بغنَجٍ ":أيا ملعون، تتظاهرُ امامَنا بالورعِ والتقى"! (أيُّ ورعٍ في تجليّات الحب، وأيُّ تقىً في حَضرةِ السَّمر!)، أمّا زملاؤه الذكور فضحِكوا بعيونِهم وكايدوه " :ها يالخوينس ..!لحظتَها ضَحكت الستُّ ابتسام وراحت تنظرُ اليه وتبتسمُ بتشفّي" :خوفُكم من الخوينس.." !وكانت صديقاتُه، الممتلئاتُ بالعِطر، خلفَ القسمِ ينتظرنَ بشغفٍ ولهفةٍ رنينَ الجرسِ لاستقبالِه وإعدادِ عطرِهنَّ كرسالةِ استقبال .

برنينِ الجرسِ يهرعُ لهيفاً شغيفاً ليجلسَ على المصطبةِ في الحديقةِ الخلفيةِ للقسمِ يكتب شوقَ صديقاته الوريدات على ورقِ الروحِ لإنتاجِ قصيدةٍ سيُلقيها في حفلِ تخرُّج طلبةِ المرحلةِ الرابعةِ الذين يسبقونَه بعامٍ.

وفي نافذةٍ من نوافذ غرفةِ الاساتذةِ في الطابق الثاني يلمحُ السِّت ابتسام تطالعُه مُبتسمةً وسطَ حفاوةِ الوانِ الصديقات وعطرهنَّ، ويطالعُ زملاءَه من الطلبةِ والطالبات ينبثقون من بين شجيرات الأكاسيا ومِسكِ الليل وقد أخذَهُم الشغفُ لمشاهدةِ ما تشاهدُه الست ابتسام في اوقاتِ فراغٍ ما بين الدروس، فيدركون أنَّ للشاعرِ عالمُه الخاص واحبابُه الذين يَعشق . لم يدركوا أنَّ قلبَ الشاعرِ كان بعيداً في قِسمٍ بعيدٍ من كليةِ بعيدة له زميلةٌ حبيبةٌ سيقترنَ بها حالَ تخرجِهما، وأنَّ القاسمَ المشتركَ بينهما هو العهدُ بالوفاءِ وإنْ على حربٍ ستأتي لتسرقَ حلمَهما الجَّميل وتستبدله بكابوسٍ مَصحوب بكمدٍ سيستغرق ثمانية أعوامٍ .بانتهائها تجدُ الحبيبةُ نفسَها وحيدةً؛ والصديقات الوريدات يأخُذنَ بالذبول . ويموتَّنَ من

الحزن بعد انتظارٍ طويلٍ، طويل؛ ما انتهى إلّا على خيطِ دخانٍ مرَّ من فوقِهما وانسابَ تاركاً هواءً من لَوعةٍ وأنفاسِ حنينٍ همَدَت على مصطبةٍ فارغةٍ تكدَّس فوقَها غبارٌ مَعجونٌ بالدم.

السماوة

10حزيران2016

سرُّ المِظلات

(1) مظلة المَطر الجميل

حفَّز الألوانَ، وأثارَ الأضواءَ الوهَّاجة .جعلَ التأجُّجَ من فصيلةِ الفضاء الجميل في لوحةِ انطباعٍ ثَر" ..نحنُ نحذو حذوَ القمرِ في ضيائِه الفضي، ونتوهَّج توهُّجَ الشمسِ في عليائها ".هكذا قال الرسام، وواصل ":إنَّ ابتغاءنا يكمَن في حيازةِ أبَّهةِ الالوان، غارقين في يَمِّ المتعةِ الهوائية الغامرة، والمظلةُ في اللوحة بوصلتي في التحرُّك عَوماً أو خطواً على أديمِ البهاء الذي يأتي به نهر الالوان ..."يقول ذلك متقَّمِصاً دواخل " مونيه "في بوحه، ومُشِعّاً مع تداخل الزيوت الملونة المتحررة من انابيب احتوائها .يُسهم في التعامل مع الضوءِ والظل ..يحثُّ الخطى ليَعبِّر عن لومِه للشاعر الذي انهمك في السبكِ والبناء، فيهتف به ":أمَا انتهيتَ منها، أما شبعتَ من بهاءِ حقلِها الجميل؟ ..!إنَّ الالوان لتتوهج عندما تبغي الانسكاب، وإنَّ الضوءَ يعتلجُ حين يُريد منحَ قرينِه الظلّ

وجوداً، وإنّي على عَجلٍ لرسمها فتاةَ حُلمٍ تزدهي بها اللوحة مَقرونةً بكيانِ المظلة الباعثة على الرومانس ترفعها الكف الشمعية لتشكل ظلا خرافياً مسروقاً من جنّة الله، ويستمتع بطلَّتِها مَن سعى للبهجةِ وقادَ الذائقةَ لقطفِ يناعةِ الحياة ... أتدرى يا قارئي أنَّ الحياةَ تينعُ وتزدهي بالمظلات ..لهذا سأتفادى كل ما يُثقِل على الانسان يومَه متجاوزاً تهافت مُفرداتِ خنقِ الأمل؛ فلا أرسمُ يأساً، أو تقهقراً .ولا حزناً أو كآبة . بل سأخلقُ عالماً ورديّاً، حدائقياً، سماوياً، ربيعياً يزدهي بالمظلات ؛ وأقولُ لرتلِ الالوان :هيّا، هذا يومُكم في الانغمار كي تصنعوا الحدائق ومعها المظلات .فالحدائقُ قاموسُ الهناءِ وصانعةُ لافتات النشوى ؛ أمّا المظلات فتوابلُ مائدةِ العشقِ العذيب ...هي تبتهجُ للمطر وتحتفي به؛ وأنا مِن فرطِ شوقي للتعاملِ مع الألوانِ احثُّكَ على الاسراعِ ، ايُّها الشاعر .فلا تكن أنانياً فتحتسيها بمفردِك .دع مظلتَها تقول شوقَها وتبوح بسرِّ الرومانس الغافي على قلبها كالندى .. لماذا لا يكتب الشعراء عن المظلات كثيراً فيعطونها حقَّها في الوجود؟ ولماذا الساردون غافلون عن وصف المظلات

واستخدامها ساعةَ مَطرٍ شيفرةً للتحاور بين الأحباء الغارقين في يَمِّ العشق والثَّمل عند شاطىء الغرام؟ ..!إنَّ المطرَ لقصيدة تقولُها أنتَ بالكلمات ؛ وهو عندي مفتتحُ اللوحةِ ومفتاحٌ فكِّ لُغزِها . فالمطرُ يأتي بالمظلات، يدعوها فتمتلئ الشوارع بألوانِها الضاحكة الناصعة ، ومعها يأتي ماتيس بألوانه الوحوشية ورهافة حسّه الربيعي، فتغدو اللوحةُ مدّاً من مظلاتٍ ومطر؛ وجمهرةً من الرشيقات، المتمايسات، المتهايفات بسيقانٍ تضربُ الاسفلتَ المغسولَ بكعوبٍ عاليةٍ تناهضُ حبّات الماء المُتفَجّرة على الاسفلتِ بينما مُستعمراتِ المياه التي يصنعُها الماءُ السَّماوي تَتَشكَّل مرايا تعكسُ حركاتِ الرهيفات، العاشقات، الثَّملات فتستحيلُ اللوحةُ حياةً هاتفةً بالبهاء احيلك الى لوحةِ " يومٍ مُمطر " في شوارعِ باريس وتقاطعاتِها لغوستاف كيليبوت، تتقدَّم اليها الذائقاتُ التائقاتُ لِلَّذاذاتِ والمِتَعِ الساخنةِ بالمظلّاتِ الراقصةِ على ايقاعِ المَطرِ العَذبِ وهَديرِ السماء ..تهتفُ القلوب :يا مَعشرَ الخلقِ الوسيم، يا جيشَ المظلات التي تراقصُ المَطر في سيمفونيته المائية إنّا لعشاقٌ ابديون، ومحبو مَظلات تُكمِّل

جمالَ الجمال في طيفه ، وتحتفي بالألق ...".ينعم الرسام بهذا البوح المقرون بالتساؤل . تشعُّ فرشاته متمايسة على ايقاعِ روحه الرهيف فيلوذ الشاعرُ بكلماتِه، ويرى في أسئلة الرسام وقوله شيئاً من العَتب .آنها يقرر أن يكونَ لكلِّ مظلةٍ تحاورُ المطر وتَسعَد لحضورِه قصيدةً ..يُصمم على جَعلِ حضورِه انتظاراً من مِظلةٍ انطوت على نفسها حزينةً إلا بحضور باعثِ نشوتِها، وحركتِها، وانفراجِها ..المطر .

(2) مِظلة شمس الضحى

وَسط قُماشةِ الجِنفاص غير المحدّدة بإطارٍ تتبارى النسائمُ تهفهف عند حوافِ مظلات السائرات في الطريق يعشن الانتشاء ضحى يوم ربيعي جعله الرسام محبباً لناظريه؛ فالمظلاتُ مُكملات لاكسسوار ترجلهن على ايقاع النشوة، وهن بفساتين تحاكي ضحك الربيع وتهمس في مسمعه :انا لكَ لغارقاتٍ في الثمل، وعائماتٍ في فيضِ نشوتك المائية ".. الربيع مظلات ".يتمتم الشاعر في سره ".والفتيات قصائد

الشاعر التي لم تُكَتب "... "..ماذا قلت؟" يهتفن بصوت واحد يسألن الرسام؛ والرسام لا يجيب ...انه يستحم بالألوان ويندهُ على الضوء أن يأتي، فالضحى لا يكتمل جمالُه الا به، والألوانُ تبقى عاجزةً عن الإفضاء عن نفسها إنْ غابَ الضوء أو خبا؛ والمظلات سرُّ نجاحِ اللوحة ، وشفرةُ عشقِ المُشاهد لها والتولِّه بمحتواها ...إنه يسعى لإثارة ذائقةِ قارىء نصّه اللوني من خلال تظمينها بمظلَّة .

كانت بيرتا مورسيه تعلن جهاراً تأثير مونيه على تحبيبها للمظلات، فتقولُ بتجرِّدٍ وباعترافِ التلاميذِ بأساتذتهم " :بتُّ بفضلِه أعرفُ جيداً إلى أيةِ جهةٍ أميل بمظلتي "ذلك أنَّ المظلة سرُّ الصحبةِ الجميلة حين يكون الفرد لوحده ويساوره شعورٌ بافتقادِ رفيق ..فما عليه سوى أنْ يضغطَ زرَّ الانطلاقِ لتتجسَّد تلك الصحبة المبتغاة ويتشكَّلُ قلقُ الوحدةِ فراشاتٍ للألفة ..تغدو المظلةُ كالكتابِ للجليس، ويغدو المتنبي الذي نَده بضرورةِ الصحبةِ الخيّرَةِ بكتابٍ مُعادلاً موضوعياً لمونيه

مُلهِم بيرتا مورسيه ..كلاهما بثَّا الالهام في النفوس فجعلها تتوق لحصد الجمال .

تُلهِمُنا المَظلات وتدفعنا لعشقِ الألق .تُعرِّفُنا بالأهميةِ القصوى لحوارِ الطبيعة فنغرقُ في بحيرةِ الهناء ..وإذْ تأتي ساعة الضحى لتحاور النفس تُكمِّل سيمفونيةُ اللوحةِ المُشرقة ..لحظتها يشعرُ المنتصِّب إزاءها قارئاً بالنسيم الدافىء، تأتي به الشمس المبتسمة بهاءً .

إنَّ النسيمَّ لخلاّقٌ عَذيبُ.

(3) مِظلةُ الشَّمس الحارقة

لاهبةً تتَكينُ شمسُ الظهيرةِ على مَن يبغي العودةَ إلى البيتِ اثرَ ساعات عمل طويلة، وحارقٌ هو الاسفلت لمن يسير عليه ببطء فلا يحسب حساب اللفح المندفع من غليانه.

الشمسُ الحارقةُ في سعير مناخ مُتجبِّرٍ تُجبر المارَّةَ في طريقٍ هواؤه لفحٌ، واسفلتُهُ لظى ورصيفه مَقلاة ساخنة كاللعنة

؛ وما الناجي من كلِّ هذا الهول الا حاملُ المَظلَّة الذي يتعالى على غضبِ ظهيرةِ الصيفِ الحارق .

حاملُ المظلة اختارَهُ الرسام مُنتصِباً على الرصيف(يا لسادية الرسام وهوسه في ايلام شخوصه!) تتبعُهُ على بعدٍ امتار امرأةٌ جعلها تتخلّى عن الرشاقةِ لصالح سُمنَة مقصودةٍ تدفع الناظرَ المحلل للقول :لولا المظلة لساحت هذه المرأة شحماً واستحالت عظاماً(لكأننا نسمعه يتشفى بما تعانيه المرأة وما نتألم له نحن المشاهدين)، ولسمع المارّة رائحة الشواء والقرقعة(إنَّها قرقعةُ اللذة التي تمور في دواخل هذا الرسام المجنون)، في حين ندبَ المتوقِّفان هناك تحتَ شجرةِ الكالبتوس الكثيفة الاغصان والاوراق حظَّاً لانهما لم يَمتلِكا مظلةً (يا لرسام قميء يسعد لإذلالِهما بجعلهما ينسحقان برحى الانتظار ولم يضع لهما حلا ينقذهما من جحيم الهول!) مؤثرينَ انتظارَ سيارةِ اجرةٍ(لابدَّ أنَّه تقصَّد أن لا تأتي !) لتنقذهما من حربِ اللظى وهما يُعنِّفان قدراً (ولم

يطلقا عليه رصاص بغضهما) اوجدهما في بلدٍ اخرجته السماء تواً من قاع الجحيم .

(4) مِظلةُ جمعِ العُشاق

فاجأنا الضوءُ الساطع، وهاجمتنا الشمسُ بسهامها النيزكية الحادَّة فانكمشت عيوننا مَقرونةً بحرقةٍ ومتبوعةً بردِّ فعلٍ يَقيها شرَّ الألم ..ندهنا على المظللات كي تعيننا على المواجهة؛ فالعين تنحسر وتضيق، والقلوب بين اضلاعنا تتلظّى وتمور .

شكرتُ المظلةَ التي افرجَت جسدها وأشرعته نثاراً من الظل بمثابةِ ابجديةِ مساعدةٍ وتفادي موقف مباغت ..لقد منحتنا لحظة فتح المظلات وارتفاعها فوق الرؤوس موقفاً جديداً؛ حتى أنَّ أحدنا هتف من شدِّة استمتاعه بالمنظر المتشكل ظلّاً ابعد مطر اللهب المتساقط علينا كالحمم ":إنَّ الحياةَ مظلاتٌ .."..وهتف آخر من مكان بعيد " :بفضلها تكسرت السهامُ على السهام".، وأومأت امرأة اربعينية من بعيد،

وتناهى صوتها كالهتاف ":يا انتم ! بغير المظلات نفقد ابجديتنا وسط هذا الفضاء الجهنمي ".بينما ادارت فتاة عشرينية وجهها للصيقها الذي يقاربها العمر تحت المظلة؛ تهمس في اذنه :لولاها ما التصقنا أمام الاشهاد؛ لولاها لصرفنا الكثير من الوقت ننتظر فرصةً مسروقة من جيب الحظ ".

من جَمعنا المنتصب بانتظار الباص الذي يقلنا الى بيوتنا وننفرط سمعنا مَن يتمتم" :هذا موضوع لمشروعي القادم .. ستتبارى الالوان وترقص ..سيرتوي عطش القماشة وتشبع من نمير الضوء. إنَّ الضوءَ كان رحيماً "..حين استدارت اغلب الرؤوس تطالعه كانت عيناه تجمعان تفاصيل المشهد؛ كانت ذائقته تعلن الشراهة فتتملّى التفاصيل ...سمعنا مَن يهمس " :هذه كلمات لا يقولها الا رسام، وهذا رسام لا يمكن الا ان يكون موهوباً ...".احتفت المظلات بما سمعت من إفضاء، وطربت لما جاء من تعليق.

كانت الشمس صاهدة؛ نقارعها بالمظلات ونرمي عليها سهام استهانتنا بينما المظلات تزهو بألوانها المأخوذة من بستان الالوان المُراد لها أن تهتف بيناعةِ الفصول، وجذلِ مخلوقاتٍ قالت عنها الطبيعةُ اولئك نوافذي على الحياةِ المبتغاة .

(5) مِظلة العمرِ الدائمة

كانت المِظلةُ مِنكمشة كجريدة أريد لها ان تُفرَد في أوان ضرورتها؛ وكان" هو "و"هي "يخطوان على رصيف شارع يقود الى حديقة تتوسط مجموعة بنايات سكنية بطوابق متعددة ..لم يكن هناك مطر، والشمس التي يتطلعان اليها كانت باسمة تغدق اشعتها ودفئها بلا ترجٍّ .وكان الطريقُ نفسُه الذي يسلكانه كلَّ يوم وفي هذا الوقت من النهار .. ولكن ما الذي حدا بهما للإتيان بمظلة في غير وقت حاجتها؟ "... ماذا تقول عن هذا الضحى ايها الشاعر، وبماذا تعبّر عن ملاكٍ قرنته بالمظلة، وتغزلت به فيئاً يشبعك بالندى؟ " سألته بشيء من المزاح؛ فاستعاد بعينين فقدتا

الكثير من البريق صورة ملاكه الذي كان يردد على مسمعه": أنتَ شمسٌ ولا كل الشموس اردتها .وكان يقصد القول " : مِظلة ولا كل المظلات".

(6) مِظلات للحزنِ العميم

حين ابتدأ القدّاسُ، ومرَّ المُشيّعون في مَمَرِّ الحديقةِ المَصفوف بأحجارِ البازلت، وتوقفوا أمامَ حُفرةٍ مُستطيلةٍ وتابوتٍ يَجمعُ قامةً بشريةً ودَّعَت الحياةَ مُجبرةً وصاغرةً كانت الغيومُ سوداءَ تحتشدُ كجيشٍ يَرتدي السَّوادَ ليمطرَ الأرضَ برصاصِ مائِه ...هكذا تبارَت فرشاةُ الرسام على سكبِه فوقَ قُماشةِ الجنفاص، وودَّ لو كانت القُماشة غيرَ مُحدَّدَةٍ باطارٍ لِجعَلَ مَشهدِ الدَّفنِ أكثرَ سِعةً، ولأظهرَ مشيعينَ آخرين لديهم راحلٌ قريبٌ يُسهِمون في دفنِه أيضاً؛ ولعَمَلَ حالةَ دفنٍ أخرى في زاوية اللوحة؛ وفي زاوية أخرى من القماشة خمَّنَ رصف مجموعة من التوابيت وحشد من ذوي الموتى والمُعزّين ..لا يريدُ للقماشةِ لوناً يُدلّل على شفرةِ أملٍ فالحياةُ مَجموعة لطخات سود، وضربات فرشاة رمادية

تستحم بالأسود، ولجعل عدد المظلات المرفوعة فوق رؤوس المشيعين تتراءى وكأنَّها خيمةٌ سوداء بَلْ ودَّ رسمَ مظلاتٍ أخرى للمشيعين الذين تمنّاهم قريبين وبنفسِ كثافةِ مظلاتِ المشيعين الظاهرين وسطَ اللوحة ..انتفضت عليه قامةُ لفتاة ترتدي معطفاً مَطرياً اسود، وحاكاها شابٌّ بنفسِ طولِها كان يقف جوارَها وكفُّه تحتضنُ كفَّها ": أيُّها المجنونُ، تحاربُنا بالأسود ودونَكَ مِسكين الدارمي ومليحته التي بالخمار الأسودِ؟ !

تراجع الرسام منكفئاً؛ لكأنها طعنته بخنجر إذ ذكّرته بما يقوله الشعراء فينجرح له الرسامون.

تراجع وقد تفجرت في قلبه ساقيةٌ من سواد، وتدفقت على جسد اللوحة دموعه التي مازجت المكونات فاستحالت لا موضوعاً ..صارت فرشاته تكتب لا ترسم، تخط لا تلوِّن، ذلك أنه تراجع عن افضائه اللوني لصالح الكلمات عندما قال "يا هذي :بعد رحيل مليحتي صار العالم اسوداً، و ..... "وكان يريد أن يكمل ، ويبرر لكنَّ الفتاة ومعها الشاب لم

يسمعا ما قال .إذْ تحركا فانعطفا خارجين من أحد اضلاع اللوحة، فلم يعلنا مواساتهما في حزنه وجُرحه الذي لا يلتئم ...فما دامَت الفرشاةُ قرينةً له في بوحِه، والألوانُ وسيلتَه في التعبيرِ عن روحٍ تعيشُ اللظى ، وتعتاشُ على الذِكرى الجارفةِ كالرياحِ لن يَتخلَّى عن الأسودِ ايقونةً لمشروعِه اللَوني الطويل.

السماوة آب 2017

الجِّسرُ الخَشَبي .. شيفرةُ التَّجاوز

(1) تجاوز

أخذته خُطاه مَسحوراً، تقودُه صوبَ فَمِ الجسر، والدعائمُ الخشبيةُ المنتصبة اسناداً لوجود هذا الهيكل المناط به ربط جانبي المدينة منذ عقود بدَت له لافتةَ تحذيرٍ تُعاضِد تحذيرات الكبار ..كان كلّما اقترب وهمَّ بالعبور تراجعَ خائفاً، وجِلاً .تُدوّي في مسمعِه اصواتُ اصطفاقِ الألواحِ الخشبيةِ المتراصفةِ وهي تميدُ تحتَ أقدام العابرين أو آنْ تمرُّ عربةٌ مشدودةٌ لحصانٍ تنقل حمولة من جانب لجانب .وكان كلَّما طالعَ المياه تندفع دفّاقةً ومسرعةً من تحت الجسر تراجع مَصعوقاً، ومَكبوحاً من مُفردة :إيّاك ..إيّاك !تسكبها الأمُّ الهلعة من جموحه بينما يطالع الضفةَ البعيدة ناظراً لها عالَماً غير مكتشف .ينكفئ متخاذلاً ؛ تمزق دواخلَه مخالبُ الفشل .تأخذُه الأزقّة صوبَ البيت بعينين كسيرتين، تعكّر فيض الشمس ، تظلم الظلال الرطيبة التي اعتاد التحاور

معها بجذل امتلاك ما يصمّم على امتلاكه .يسألُه الصِّبيةُ من أقرانِه :أينَ كنت؟ .!لم يدركوا سَبب استمرار سحنتِه المفاجئة، ولا هو تجاوز الموقف بالانغمار معهم في اللعب ..فقط توجّه نحو البيت وفي رأسه قرارُ تنفيذِ الوصول الى ما أثارَ فضوله.

صباح اليوم التالي انسلَّ من البيت؛ خلَّف الصِّبية المنهمكين في اللعب داخل الزقاق .سلكَ السوقَ المزدحم، تجاوزَ حشود المتسوقين . لا شيء يشغله غير أنْ يحقِّق وقوفاً على ترابِ ارضية الجانب الثاني من المدينة.

الدعائم الخشبية واجهته بانتصابٍ صنعت رهبةً أعظمَ من رهبةِ الأمس .المياهُ كانت اسرعَ جرياناً وأكثرَ تدفّقاً .أصوات اصطفاق واحتكاك ألواح الخشب أكثر صدى، لكنه هذه المرّة كان أشد اصراراً على التنفيذ .لم يكُن مُطمئِنّاً للعبورِ بل كانَ خائفاً .لم يكن كَمَن لا يأبه لما سيحصل بلْ كان مرتبكاً .لذلك حين وضعَ أول خطوة على جسدِ الجسر اغمضَ عينيه كمحاولةٍ لتحقيق قرار .وصار يوارب الرموشَ

كلَّ حفنةِ خُطى، ويغلق الأذنين لكلِّ مَوجةِ هدير .ولأنَّ العزمَ يساند القرارَ كانت مواربةَ الرموش تُعلمه بانصراف ربع المسافة، ثم نصفها، ثم ثلاثة ارباعها، ثم أخيراً وضعَ القدمُ على بلاطةِ مَدخل الجسر من الجانب الثاني وموجة تصفيقٍ تنبثق في قرارِ روحِه تُحيي فيه نجازةَ الوصول.

في عودته للجانب الذي انطلقَ منه لم تكُن العينان مُغمضتين طويلاً، انَّما الرموش هي التي اتَّخذت مدىً أوسع من الانفصال.

ذلك اليوم صار جانبا المدينةِ مُلكَ خُطاه، واستحالت تضاريسُ الجانبِ الثاني بِرمَّتِها مُمَهَدَة للاكتشاف ..قال : غداً سأحثُّ أصدقائي في الزقاق على عبور الجسر .. سأتقدَّمُهم لكسرِ حاجزِ رهبتِهم.

الثلاثاء 2013/ 8/ 13

(2) تَعلُّم

أخذه التفكير طويلاً لحظة تساءل إنْ كان النهرُ عميقاً أم لا، والفتية الذين يقاربونه العمر كانوا يتقافزون في غمير الماء .. يغوصون وينطّون ، يخوضون ويعومون ..يدورون بأجسامِهم النحيفة بحركةٍ مِغزليةٍ تعكس عُمقَ نشوةٍ تملأ رؤوسَهم وحريّة مطلقة تتمتَّع بها أطرافهم ..يرونَ الماء عالمَ لذَّةٍ ودنيا مَراح . هو جالسٌ على صخرةٍ تحاذي الجرف، يدفع بأصابع قدميه تمسّان الماء، ثم يسحبهما بنفورٍ خشيةَ البللِ بينما أعماقُه تمورُ بحبِّ مشاركةِ أقرانِه اللعبِ سباحةً .يهلع إذ يتخيَّل أنَّه مثلُهم يغوصُ وينطُّ، ينأى عن الجرف ويعود ..الغرقُ وهجومُ السلاحفِ والأسماكِ عليه تفقأ عينيه وتبقر بطنَه هو ما يُرعبُه ..الأمُّ حَكَت له كثيراً عن صِبية ماتوا في جوف النهر ..سحبتهم الرفوشُ والسلاحفُ الكبيرةُ ولم يستطيعوا مقارعتها ، فتقطَّعت انفاسُهم؛ امتلأت رئاتُهم وبطونهم بالماء، وصاروا غب ساعاتٍ طُعماً لمخلوقاتِ النهر .تخيَّل نفسَه مَسحوباً بأرتالٍ من السلاحف، وآلاف من السَّمك الجائع الشَّرِه تفتح افواهَها لتبتلع لحمه .سحبَ قدميه؛ صار النهرُ

عدوَّاً، وصار الصبيةُ من صحبه أفواهاً تنده عليه لتجرَّه الى غياهبِ الموت .عادت كَلماتُ الجَّدَّة وتحذيرات الأمِّ في تصوير النهر غولاً من ماءٍ ويلٌ لِمَن يدنو منه" ... انزل إلى الماء ." .سمع أكثر من صبي يشير عليه.

"اخلع ملابسَك وادخل ... هو ماءٌ لا غير ".

"أتضمن لي أنَّ النهر لا يَغدرني ويأخذني الى اعماقِه ... أتضمن سلامتي؟ "

" نعم ... نعم ..."جاءه أكثرُ من صوتٍ .

مَسكَ ياقةَ ثوبِه بكفّيه وكانَ على وشَكِ أنْ يَسحبه، ويخلعه، ويبقى باللباس الداخلي ويلجّ الماءَ عندما جاءَه صوتُ كبيرِهم وكان يعوم في مَكان يبعد كثيراً عنهم:

" لا ...لا تخلع ملابسك وتنزل الى الماء ...لابدَّ أنْ تتعلم، ولابدَّ أنْ يكون هناك مَن يُعلمّك ...عُد إلى بيتِكم ، اليوم سأتحدَّث مع والدِك ".

انبسط للكلام .ووجده شبيهاً بالذي تكلَّمت معه أمُّه ..لا اكتساب مَهارةٍ دون تعلُّم، ولا يتحقَّق التحدّي إنْ لم تكتمل ادواتُ الاستعداد.

لوَّح للفتى وقال :سأخبرُ أبي، وأُطمئِن أمي ..سننتظرُك غداً لتعلِّمَني .

(3)تفاوتٌ زمني

كان كلَّما فكَّر في التوجِّه إلى الجسر وعبوره ومشاهدة النهر الهادر بالمياه السريعة تَتفجّر في صدرِهِ رعدةٌ، وفي قلبه خفقٌ ..يصطفِقُ الساقان، وتتعثر القدمان، فينكفئُ مُتقهقراً.

يدوّي صوتُ أمِّه في مسمعِه بتلك الكلمات التي تستحيلُ صوراً في مخيلته فيرى جسدَه مُسجىً على تلك الحجارةِ المرمرية المستطيلة التي يوماً ما شاهد عليها ابنَ عمِّه الذي كان بعمرِهِ أصفرَ الوجه والجسد ممدداً ورَجِل التغسيل يهيل عليه الماء المشبَّع بماءِ زمزم .ثم يعقبه بمسحوقِ السِّدر وهو

يقرأ آيات من الذكرِ الحكيم تُذكِّر ابنَ آدم بأنَّ مآلَه الموت ، وحفرة يُدفنُ فيها .فلا بعدها أحدٌ يَسمعُه، ولا هو يَسمعُ أحداً.

يعود وقد جعلَ الجسرَ صورةً للتحذير ، ومَنظرَ النهرِ مَشهداً للرُعب ..يعود وقد تخيَّل كلامَ أمِّه عين الصواب .فليس صحيحاً أنْ يتمادى فيسعى للعبور وعلى جانبيه هديرٌ يصرخُ به، وصوتُ تلاطمٍ يتوعَّده.

يتخيَّل تلك المياه أفواهَ اسماكٍ تتحيَّن سقوطه في الماء، وترتسم في رأسه صورةُ تلك الكواسِج التي شاهدَها في فيلم " عُمال البحر " يوم كان جالساً الى جانبِ أبيه الذي اصطحبه الى السينما يَرتعد من الخوف حيث الكوسجُ بعينين خرزيتين وفكّين لهما اسنانٌ سيفيه ينقض سريعاً انقضاضاً مَزَّقَت جسدَ أحدِ الصيادين الذي خانه الحظ فأوقعه من زورقه الى الماء وسط رِثاءٍ تبوح به عيونُ أقرانه الصيادين في الزوارقِ القريبة.

إنَّه الآن رجلٌ يذكرُ كيف كان يلوم أبيه على عدمِ جعلِه يُصاحب أقرانه للسباحة، وكان الأبُ بدوره يؤجّل تعليمه تلك

المهارة العَذبة لحين يَصبح فتىً قادراً على اتقانِها لا طفلاً يكون التعلمَ صعباً وعسيراً ...يذكر أنّه بعد ما يزيد على العامين وفّر له مستلزمات التعلم :ثلاثُ قطعٍ من كَربِ النخيل، يربطُها حَبلُ من البلاستك ويجمعها قماشٌ سميك . يشدّها على ظهره فيعومُ بارتياحٍ حين النزول إلى الماء، وفعل حركاتٍ كان الأبُ يوجّهه على أدائِها .

نَعم، إنّه الآنَ رجلٌ يَقطعُ دونَ خشيةٍ دربَ الجِّسرِ مَرّاتً ومَرّات، ويعبرُ النَّهرَ غير آبهٍ لسرعةِ مائِه ولا للهديرِ الذي يَملأُ مسامِعَه ..يَنظرُ الى النَّهرِ بلا خوفٍ لأنه بلغَ مِن العُمر ما يُمكنُه مِن مُواجهةِ المَواقفَ واتِّخاذِ القراراتِ الحاسمةِ، مُصمِّماً على تَعليمِ ابنِه أنَّ التَصرُّف في أمرٍ في غيرِ أوانِه مَدعاةٌ للسقوطِ في هوّةِ الفَشَلِ، واستقبالِ عَواقِبَ قد تَحدُث جُرحاَ عَميقاً لا تَقدِر الأيامُ والأعوامُ على مَحوِها أو تجاوزِها حتّى.

1 تموز 2018

تَكويناتُ بائعِ الأعشاب

(1)تكوينُ فَقدٍ

لم تخشَ قِفرَ الزقاقِ ووحشتَه، ولا ساورتها رجفةُ خوفٍ من صمتٍ تمتصُّهُ حِلكةٌ تُحجِّم صفرةً ذاويةً لمصباحٍ يتدلى من عمودِ كهرباء مائل جوار حائطٍ بطابوقٍ مُثلَّم الحواف ..تلفُّ العباءةَ السوداء حول قوامِها وتبرح منزلَها كنخلةٍ متفحمة .. تبرح زقاقاً وزقاق، مندفعةً بخطى لا تأبه لتعثّرٍ يسببّه الدربُ غير السوي .همُّها بلوغَ السوق والدخولِ إلى فنائه ..هناك ! تقطع نصفَه غير آبهةٍ للعيونِ المتصالبة والدواخل المُمتعضة المتابعةِ من أصحابِ المحلات والمعارضَ لتقف أمامَ دكانٍ يبيعُ الأعشاب .(الدكانُ مغلقٌ في انتصافِ الليل لكنَّها تراه مرفوعَا لكبنك، وضوءُ المصباح يُبعثر ضياءَه على قناني الأعشاب الزجاجية المرصوفة فوقَ الرفوف المتعالية حتى السقف، مثلما ترى البائعَ الشاب مُنهمكاً بخلطِ مكوناتٍ يلتقطها بأصابعَ صبغتها ألوانٌ متنوعة من جوفِ القناني)

تومئ له أنْ يخرج لها ...في العينين شررٌ، وفي القلبِ حرقة ...من عمق الدكان يظهرُ الشاب .يقف إزاءها بعينين غائمتين تُمطران حيرةً وتُطلقان تساؤلاً عن هدفِ وقوفها وندائِها ..تقول له كعادتِها" :ما عملتَ لي من خلطةٍ لم تؤدِّ مفعولَها؟ ومَن أردتُه يفتح قلبه ويستقبلني بمثلِ ما استقبله لم يَفعل؟ ..أيُّ عشّابٍ أنت؟ أليسَ لكَ قلب يتدفَّق بدماءِ الشباب؟ وهل جمُدت مشاعرُك بحيث لا تُعير همّاً لمن يتضرَّع إليك؟ ..."يطأطئ الشاب رأسه، وتدمع عيناه؛ لكنَّه يتمالك نفسه ..يحدِّق في عينيها ويتأسى، ثم يقول يُطمئِنها : "اهدئي؛ لنجرِّب خلطةً أخر، لعلَّها هذه المرة تكون لصالحِك فيأتيك طيِّعاً ، ذليلاً ، يركعُ عند قدميك.

عادَ إلى جوفِ المحل ..أبصرته يتناول قنينةً من هنا وأخرى من هناك؛ مستخلَصاً زيتيّاً من هنا وآخر من هناك .يخلط الأعشاب مع الزيوت، وينثر فوقَها آياتٍ يسكبُها فمه .حتى إذا صرفَ ما يدنو من الربعِ ساعة وضعَ الخليط في قارورةٍ

صغيرةٍ ودفعها في حضنِ كفَّيها اللتين ارتعشتا لحرارةِ أصابعه.

قال مُنبِّهاً :ضعي في حسبانِك أنَّها خلطةٌ لا يأتي مفعولُها سريعاً ..قد يستغرقُ شهراً أو أكثر .عليكِ بالصبر.

صرخت جزعةٌ" :شهر أو أكثر ..!!لا ! لا ..هذا ثقيل على قلبي؟"

طأطأ رأسَه ودمعت عيناه ..هتفَ في سره" :وهل ترينه خفيفاً على قلبي؟"!

ويوماً فيوماً طَفقت تنتظرُ التأثيرَ ..تمرُّ مِن أمامِ دُكانِه كلَّ صباح، تُطالعُ وجودَه ..تريدُ أن تَدنو منه لتستفهمَ؟ .. استفهامُها ليسَ لانعدامِ تأثيرِ الخَلطَةِ بل لذوائه هو ..ذواءٌ تدريجي اكتشفته بعينِ الرُّعب ..أرادت مَرةً أنْ تقتحمَ الدكان لتقول :يا حبيبي أنتَ تذوي، وأخشى أنْ لا أحظى بَمفعولِ وصفتِك ..لكنَّها تراجعت خِشيةَ امتعاضِه، والتسبّب في إطلاقِ كلماتِ تذمّرِه.

لم تَغب إلّا يومين ..وفي اليومِ الثالثِ اندفعت بِكلِّ شَوقِ القلبِ وخِشيةِ الرّوحِ عليه ..تركت الزُّقاقَ واندفعت إلى عُمقِ السّوقِ لتروي نَظراتِها بِقامتهِ وطلّةِ وجهِه الحَييّة عندما كُبِحت بانغلاقِ الدُّكان وارتفاعِ لافتةٍ سوداء كلماتُها تَنعي مالكَه المتوفى بمرضٍ عِضال.

عادت إلى بيتِها مُتعثرةً، خاوية ..وفي غرفتِها كانت الدموعُ قَصيدةَ النعي التي صارت تُمارسُها يومياً ..ويومياً تخرجُ ، في منتصفات الليالي، لتقفَ أمامَ الدُّكان تحاورُه، وترجوه وَصفةً أبديةً للقاءٍ دائم.

(2)تكوينُ ضياعٍ

أجهدت نفسَها، قاطعةً درباً ريفياً متربا، مصمِّمة على الوصول إلى المدينة حتى لو تطلَّب الأمر مشياً في حالة تخلّف باص القرية عن المجيء .تتعقبها الكلاب الناطّة من البيوت المتناثرة على جانبي الطريق، مُطلقة نباحاً لإخافتها . الشفق يتسيَّد السماء بينما الفجر بعيد .قال لها :أنتِ تحمَّلتِ كثيراً، وما تقومين به لن يوقف جنون السكاكين التي تمزق

أحشائي .كم من مرة نزلتِ إلى المدينة وكم قدَّم لك بائع الأعشاب وصفات قال ستبيد المرض عن آخره، وستأتين يوماً وإياه بكامل عافيته لتلقيا التحية ..هذا مرض لعين يتمناه الناس لأعدائهم .سأموت، يا حبيبتي ..!أدري أنني سأموت.

حثت الخطى .ومع الخطى المسرعة ثمة فورة غبار تتعالى وراءها .كانت تتمنى مجيء باص المدينة سعياً لاختزال زمن إدراكها ..ولم يجانبها الحظ ويعاندها، فقد لاح الباص من بعيد يبعث ضوء مصابيحه ويتوقف بعد لحظات، فتصعد وقد خمنته فألاً حسناً ليوم قد يغدق عليها خلطةَ أعشاب تعود بها لتصارع معركة السكاكين وفتكها في جوف الحبيب.

تلقفتها خثرة السوق المسقَّف بعدما عبرت راجلةً جسر المدينة الخشبي ونهلت من نسائم النهر ما يعينها على شرح آخر أعراض مريضها الذي تركته هناك يرجوها البقاء معه ليشبع من مشاهدة قسماتها ويستعيد ذلك الوجه الحنطي والقوام المتعثر خجلاً يوم أبصرها لحظة نزولها من سيارة أجرة

تحيطها نسوة، هنَّ أيضاً متعثرات، بعدما جسدت مراسيم الاستحمام في حمام المدينة وتولت الحافوفة حفَّ حاجبيها ووجهها مُمَرِرةً أحمر الشفاه على شفتيها الراعشتين جراء خجل التجربة الأولى مثلما يستعيد تفاصيل ليلة زواجهما الأولى.

وكان الفرح كبيراً في صدرها، والرؤى فراشات جذل مهفهفة في رأسها .أما خلطة الأعشاب فكان الكفّان يضمانها بحرص ويجهدان في عدم حدوث ما يبدد سحرها جراء اهتزاز الباص العائد في درب القرية الترابي المتعثر.

الفرح يكبر ويزداد كلما لاحت لها بيوتات القرية الطينية . والخيال يأخذ طابع الصور المُطمئِّنة المتهافتة؛ فتراه في صورةٍ يسعَدُ لوصولِها، وصورةٍ يرتشف من بين أناملها كاس الخلطة السحرية، وصورةٍ يتكئ على الوسادة وقد تسللت الدماء إلى وجهه فبدا صحيحاً معافى، وصورةٍ يفرد ذراعيه يضمها لصدره ويهمس :ليس الدواء هو من أشفاني إنما أنفاسك .!فتدمع عيناها ، ويروح سيل من لؤلؤ يتقاطر على

كتفه .لؤلؤ الفرح بدوام عناقه لها وسعادتها الدائمة معه ... فجأة انتبهت لجمع نسوة يتوزعن مقاعد الجلوس معها في الباص يرددن بتطيّر :يا ستّار ..ما تلك الصيحات؟ !ما ذلك العويل؟ !

كان صراخاً حادّاً يتناهى من بيوتات بعيدة تطلقه نسوة نائحات، يلوحن بالأيدي كأنهن يرمين المختلس الذي انسل توّاً من بيت كان في إحدى حجراته عليلٌ يتلوى ألما ويتمنى حبيبةً تمطر وجهه بمطر أنفاسها وتمد كفاً يتوسد دفأها ويغفو إلى الأبد على ترنيمة هدأتها، وحميميتِها.

(3)تكوينُ خذلان

خلَّفت عويلَ القطار وراءها واستدارت تبحث عن واسطة تقلها إليه ..حدقتاها مُضبَّبتان وفي اليد ورقة مطوية بلَّلها العرق، تقبض عليها بإحكام لئلا تنفلت من بين أناملها وتضيع، فيضيع أملُها في لقائه ...المسافرون يحثّون الخطى .يحملون الحقائب أو يدفعونها في عربات بينما آذانهم ترهف السمع لمن يرحب بهم من أهل وأقرباء

سيجدونهم ينتظرون في صالة الاستقبال، أما هي فليس إلا حقيبة الرأس ملآى بالقلق والخشية من أن لا يتحقق مرادُها فتفشل في رؤيته ..قال لها في آخر نداء عبر الهاتف : سامحيني، لا قدرة لي على استقبالك، المطهرات تنفذ في رأسي وتدوّمه، والسرير يصمّغ جسدي ويعطبه.

في سيارة الأجرة التي حملتها على هدي كلمات العنوان الذي في الورقة المعروقة كانت تحرّك أناملها على صرّةٍ احتوت خلطة أعشاب ستشفيه من علّته ...فمثلما شفاها بائع الأعشاب من خفق القلب السريع وانحباس النفس وهروب الهواء وحوَّلها مهرةً جامحة بخلطة سحرية ألغت كل أدوية الأطباء فانَّ الخلطة التي جمعها بناء على توصيفه الداء الحبيب ستكون تميمةً للشفاء الأبدي.

القلبُ مجنون والمشاعرُ في هوس .كل لحظة ترجو السائق السير الأسرع ..لا تصدق أنها ستلتقيه لتقول" :جئتُك بما يُشفيك ..أيّها الحبيب يوم واحد لا أكثر. ليس غير يوم

وسيصبح الداء من الماضي .ستنهض كالحصان؛ تستهين بالخَبب فتعدو كالريح."

كانت المسافةُ بين البوابة العريضة للمستشفى والردهة المقصودة بحراً .كانت محيطاً وأرخبيلات؛ جزراً وبرمودات .. متاهات من ممرات وحشود من أسئلة واستفسارات ...وإذ طالعته من الباب البيضاء المواربة على الأسرّة الموزعة بانتظام بعدما مسحت الردهة بشبابيكه المشرعة على هواء الضحى هرعت إليه مثل أُمٍّ قدَّموا لها خبر حضور ابن فقدته منذ زمن وأبعدته عنها عاديات الأيام فراحت تُشبع وجهه بالقبل؛ وهي تردد :ما شاء الله .ليس كما تخيلتك عليلاً نحيلاً ذاوياً .. لا ..لا ..أنتَ والحمد لله معافى "..".ولكنَّ العلّةَ في القلب لا بالجسد" .."..لا عليك كان قلبي كقلبِ .لكن بهذا سيصبح قلبُك كقلبي.." دفعت بأناملها إلى الصرّة المشدودة إلى بطنها" خلطةُ الأعشاب هذه ستُنهِضُك قوياً وصلباً وشامخاً".

سهرا طويلاً وسط إكبار المرضى بحبٍّ غامرٍو صافٍ وصادقٍ يغرق الاثنين، ويجعلهما كبلبلين في خميلة رياض عاطر.تلك الليلة نامت على الأرض جوار السرير :هانئةً، مسرورةً، مُطمَّئِنَّة .نامت على أمل النهوض صباحاً لعمل إكسير الخلطة في قوري على هسيس النار ليرتشفها على رواء .بعدها ينهضا ويبرحا المستشفى على ترنيمة كلمات وداع النزلاء الحميم ودعاءَهم بحياة عسل ...بيدَ أنَّ الصباح أنبأ الجميع بتوقف أنفاس المرأة التي قال الطبيب الذي قدِم لفحصها أنَّ القلب هو الذي غدر بها فخذلها، وتسبَّبَ بالوفاة.

السماوة 2016

اصدار المؤلف من المجاميع القصصية

- مَدينةُ الحَجَر
- إش ليبَه دِش
- فَضاءاتُ التيه
- حِكايات عن الغرف المعلقة
- سحر المسنجر
- فَمُ الصَّحراءِ النادِه
- نِساءٌ تُراب

الفهرست

بينَ ثنايا العِطر 5

(1) قوافلُ العِطر ...مِسكُ الغَزال..... 5

(2) فَيضُ الغِدران ...دائرةُ الرِّمال 9

(3) واحةُ الخَيال ...برهانٌ ضائع 13

إذْ المَطرُ يَزورُ ..إذْ الدَّمدَمةُ نَصٌّ 17

(1) الصَّباحُ كلَوحَة..... 17

(2) السّياحة في بُستانِ الماء..... 20

الشِّتاء ..العَربَدةُ المائيّة..... 32

(1) في قَلبِ الهَول 32

(2) غَرقى والبَرقُ بَيان..... 36

(3) مُعاناةٌ ...فالوقتُ خَطْب 39

الرَّسَامُ والخَيلُ والرّيح 44

(1) قَلِقةً فوقَ الرِّيح..... 44

(2) قَلقُ الرَّسّام..... 46

مِن كِتاب الصَّحراء 51
(1) لَوعةُ الغَزالة..... 51
(2) ألمُ الشَّاعِر..... 53
(3) مَوتُ الشَّاعر ...بُكاءُ الغزالة 55
رَقَلُ الفَراشْات .. بَوحُ الشَّاعِرِ والرَّسّام 59
(1) الزُّبدَةُ الطّائِرَة..... 59
(2) خُطى الرَّحيق 62
(3) تَراجعُ الشاعر ...تَقدُّمُ الألوان..... 66
فَيْضُ الورودِ العِذاب 69
(1) حَسَدُ الحُسّاد 69
(2) قَصيدة الورود..... 71
(3) حُزنُ الورود..... 74
سرُّ المِظلات 79
(1) مظلة المَطر الجميل 79
(2) مِظلة شمس الضحى..... 82

(3) مِظلةُ الشَّمس الحارقة 84
(4) مِظلةُ جمعِ العُشاق..... 86
(5) مِظلة العمرِ الدائمة 88
(6) مِظلات للحزنِ العميم 89
الجِّسرُ الخَشَبي .. شيفرةُ التَّجاوز 92
(1) تجاوز 92
(2) تَعلُّم. 95
(3)تفاوتٌ زمني 97
تَكويناتُ بائعِ الأعشاب..... 100
(1)تكوينُ فَقدٍ 100
(2)تكوينُ ضياعٍ 103
(3)تكوينُ خذلان 106
اصدار المؤلف من المجاميع القصصية 110

قَصاصاتٌ
مِن كِتابِ الصَّحراء

Sheets from a desert book

Zaid AL-SHAHEED

ما زالت الدَّمدَمةُ تواصلُ ترجُّلَها في سَماءِ المدينة وتتحركُ راحلةً؛ وما زالت الغُيومُ تَحتفظُ بالدِكنةِ وتَتشبَّعُ بلونِ الرَّمادِ السَّارقِ مِن الرياحِ الغاضِبةِ اسوداداً يَتبدَّدُ مَع توالي اللحظاتِ؛ والمَطرِ الهابطِ بِمجونٍ، يَترُكُ فسحاتٍ من الازرقاقِ الباحثِ عن البياضِ المُنبئ بِمرورِ الغيمِ وعدمِ ثباته. ذلكَ يَعني أنَّنا نتوجّه بمضمارِنا الزمني إلى وَقتِ الضُّحى. وذلك الرَّجلُ الأربعيني يَخطو على الرَّصيفِ العَريضِ لشارعِ الكورنيش وقد انتشى بِساعةٍ قَضاها فارِداً الذراعين ترحاباً بالزائرِ المائي ، يردِّدُ في فَضاءِ الرّوح: " أيُّها المَطرُ الفَتى: أُصافِحُ عِشقَ حُضورِكَ الكوثري هذا ، وأعَدو جَنّةً تتناثرُ سَلوى، وتَتبعثَرُ هَناء."

عين على الكتاب
الثقافية
دار للنشر والتوزيع

دار الورشة للطباعة والنشر
بغداد - شارع المتنبي
مجمع الميالي - طابق الاول
الهاتف : 07714343692

9 789922 941189

تصميم
علي كاظم الشويلي
A_4l_i